المفردة بوصفها أداة لتحليل الخطاب القرآني

Vocabulary Units as a Means for the Analysis of Qur'anic Discourse

عبد الرحمن الحاج *

Abstract

This article deals with a methodological issue that is still new in Qur'anic studies. It discusses the approaches that are based on vocabulary units as a means for understanding the Qur'an and analyzing its discourse wholly or partially. Thus it critically traces the rise and historical development of these approaches. In order to develop and refine the usage of vocabulary as a basis for analyzing the Qur'anic discourse, the article also attempts to make some theoretical and methodological suggestions on how to deal with the question at hand by combing the traditional methods of Muslim scholarship with the insights of modern linguistics and discourse anaylsis in such a way as to uncover the possibilities that vocabulary-based analysis may provide for the understanding of the Qur'an and the future development of Qur'anic studies.

Key terms: Qur'anic studies, Qur'anic discourse, Muslim scholarship, Qur'anic vocabulary units, interpretation, thematic interpretation, modern linguistics.

مستخلص البحث

يتناول هذا البحث موضوعاً منهجيًّا ما يزال جديداً في الدراسات القرآنية، إذ يتناول المناهج التي اعتمدت على المفردة القرآنية لفهم القرآن وتحليل خطابه أو جزء منه، ويتابع تاريخ ظهورها، والتطورات التاريخية التي قطعتها برؤية نقدية، ويحاول في الوقت ذاته تقديم اقتراحات نظرية ومنهجية تقوم على المزاوجة بين المناهج التراثية للعلماء المسلميتن وما توصلت إليه اللسانيات الحديثة ونظريات تحليل الخطاب، وذلك لتطوير استخدام المفردة

* كاتب وباحث سوري، أنجز حديثًا أطروحة دكتوراه بقسم الدرسات القرآنية والحديثية – الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. البريد الإلكتروني: alhaaj@gmail.com

أداةً لتحليل الخطاب القرآني، والكشف عن آفاق البحث في هذا المجال، سعيًا للكشف عن الإمكانات التي يمكن أن يتيحها التحليل المعتمد على المفردة القرآنية في فهم القرآن وتطوير الدراسات القرآنية في المستقبل.

الكلمات الأساسية: الدراسات القرآنية، المفردة القرآنية، الخطاب القرآني، اللسانيات الحديث، التفسير، التفسير الموضوعي.

مقدمة

قد يثير الاستناد في فهم الخطاب القرآني وتحليله إلى دراسة أجزاء النص التفكيرَ في احتمال أن تؤدي إلى تفتيت البحث الدلالي للقرآن، وبالتالي التأثير في مصداقية نتائج تحليل الخطاب على هذا الأساس. إلا أن هذا الإشكال قد يصح فيما لو نظر إلى مفردات القرآن على أنها غاية في حد ذاتها يتوقف عندها البحث في الحدود اللغوية المعجمية، لا على أنها جزء من سياق أوسع ومتعدد المستويات، يبدأ من الجملة وينتهي إلى النص من حيث كل، وأنه لا يمكن فهمها بمعزل عنه، وعلى أنها جزء من شبكة مفهومية معقدة ومترابطة ومنظمة داخل القرآن لا يمكن فهمها دون إدراك علاقاتها.

ومع أن المفردة القرآنية لقيت قديماً اهتماماً خاصًّا في علم التفسير وأصول الفقه وعلوم اللغة (غريب القرآن، معاني القرآن، مجاز القرآن) وعلم الكلام (متشابه القرآن)، بل ونشأ "علم" خاص بها هو "الوجوه والنظائر"[1]، إلا أن الاهتمام بها بقي في حدود سياق الجملة و لم يتجاوز حدودها، وعلى الرغم من كثرة الدراسات التطبيقية التي أنجزت اعتماداً على المفردة القرآنية أداةً للتحليل، إلا أن ذلك لا يوازيه اهتمام واضح بالجوانب النظرية والمنهجية التي يستلزمها هذا النوع من التعامل مع الخطاب القرآني.

ولذلك يتعرض هذا المقال للمناهج التي درست المفردة القرآنية ووظفها لتحليل الخطاب القرآني أو جزء منه، وملاحظة التطورات التاريخية والخطوات التي قطعتها في هذا الشأن، ثم نقيم بعدها تصورنا النظري لما تتيحه لنا المناهج التراثية بالاشتراك مع

---

[1] أول مؤلف في هذا العلم وصل إلينا عمله هو كتاب مقاتل بن سليمان البلخي (ت 150هـ)، بعنوان "الوجوه والنظائر"، وقد حققه عبد الله شحاته، وطُبع للمرة الأولى من قبل الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة عام 1975. وللتوسع حول علم الوجوه والنظائر وتاريخه، انظر: العوا، سلوى، **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم** (القاهرة: دار الشروق، ط1، 1998).

اللسانيات الحديثة من إمكانات في هذا المجال، وذلك بهدف فتح آفاق لاستخدام الإمكانات التي تتيحها المفردة القرآنية في عملية تحليل الخطاب.

اتجاهات الدراسات المعتمدة على المفردة القرآنية

1. البحث الفيلولوجي

الفيلولوجيا[1] في تعريف مبسّط لها هي منهج في دراسة النصوص دراسة مقارنة للتحقق من أصولها، تبحث في معجمها من أجل ملاحقة التطورات المختلفة للكلمات عبر اللغات القريبة والمجاورة من خلال استعمالاتها في النصوص القديمة. في القرن التاسع عشر ولدت الفيلولوجيا التي كان يسيطر عليها هاجس الدراسة المقارنة التاريخية للغات وتحقيق النصوص من منظور تاريخي واسع للغات يشمل الأسر اللغوية، وسيطرت على البحوث الاستشراقية بحيث أصبحت أداتها الرئيسة في تحليل التراث الإسلامي وفهمه، وظهرت في نهاية القرن التاسع عشر دراسات قرآنية تعتمد المنهج الفيلولوجي.

ومن الصعب على الباحث أن يحدد بدقة تاريخ أول استخدام للبحث الفيلولوجي في دراسة دلالات مفردات القرآن الكريم في اللغة العربية؛ ذلك أن المستشرقين هم الذين ابتدروا تطبيقه على القرآن، وهم ينتمون إلى لغات عديدة، وعلى الرغم من وجود موسوعات ببليوغرافية للإنتاج الاستشراقي حتى نهاية الربع الثالث من القرن العشرين[2] تشير إلى أن من أوائل الدراسات الفيلولوجية النصية المقارنة للقرآن كانت عام 1856م للمؤلف ثيودور نولدكه (T. Noldeke)، بعنوان "أصل وتركيب سور القرآن" الذي نشره بعدما أعاد النظر فيه وطوره عام 1880م بعنوان "تاريخ القرآن"[3]، إلا أننا لم نعثر على استخدام للبحث

---

[1] انظر تعريف **الفيلولوجيا** (**Philology**) مثلاً في: بالمر، فرانك، **مدخل إلى علم الدلالة**، ترجمة خالد محمود جمعة (الكويت: مكتبة دار العروبة، ط1، 1997)، ص46.

[2] مثل موسوعة **المستشرقون** التي ألفها نجيب العقيقي، وهي موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراسات عنهم منذ ألف عام وحتى اليوم، (القاهرة: دار المعارف، ط4، د.ت)، انظر: أماني زكريا الرمادي، **الإنتاج الفكري حول القرآن الكريم باللغتين الإنكليزية والفرنسية في القرن العشرين: دراسة مقارنة**، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، قسم المكتبات والمعلومات، 1993م، ص25-26.

[3] ترجم إلى العربية عام 2004م.

الفيلولوجي لدراسة مستقلة للمفردات القرآنية قبل عام 1892م، عندما ألَّف تشارلز. س. تورّي (Charles C. Torry) دراسة بعنوان: "المصطلحات الحسابية اللاهوتية في القرآن"[1].

وهذه الدراسة تقوم منهجيًّا على مقارنة المفردات القرآنية بالمفردات الشائعة في المجتمع العربي إبان "نزول" القرآن، فالمؤلف يرى أنه "حقيقة مألوفة أن المصطلحات اللاهوتية للقرآن تتضمن عدداً من الكلمات المستخدمة في الأصل للتعبير عن بعض العلاقات التجارية"[2]، الأمر الذي يعني أن محمداً ﷺ (حسب قول المستشرق تورِّي) وظَّف المصطلحات التجارية للمجتمع العربي في صياغة تصوره الاعتقادي في القرآن الكريم[3].

لكن دراسات البحث الفيلولوجي تذهب عموماً أبعد من ذلك؛ إذ تعقد مقارنات للمعجم القرآني العربي، تتجاوز المعجم العربي برمته إلى معاجم اللغات الأخرى، عبر "الأسر اللغوية" و"اللغة الأم"، و"اللغات المجاورة"، حيث تتم المقارنة بين استعمالها في نصوص من هذه اللغات مع المعجم القرآني والعربي بحثاً عن "النَسَب" الدلالي بينها، للحكم أخيراً باستعارتها لفظاً (مع تحوير تعريبي للصوت) ودلالةً.

ولأن معظم الدراسات الاستشراقية ما تزال إلى اليوم تستند إلى البحث الفيلولوجي، فإنه ليس بالإمكان دراستها كلها في هذا المقال، بل سنقتصر على نماذج منها؛ لأن غايتنا هي الكشف عن المنهج ونقاط القوة والضعف فيه لا استقصاء المادة التطبيقية له.

وقد انتقل هذا المنهج إلى العالم العربي عبر المستشرقين أنفسهم، فظهرت دراسات عربية فيلولوجية في القرآن الكريم[4]. إلا أن الفيلولوجي – الذي لم يستهوِ كثيراً من أبناء

---

[1] انظر: Charles C. Torry, *Commercial-Theological Terms in the Koran* (Leyden, E. J. Brill, 1892).

[2] المرجع نفسه، ص1.

[3] المرجع نفسه، ص6.

[4] انظر مثلاً: أمين، نبيه، وو. جلّدن، هارولد، "تطور كلمة حنيف القرآنية"، **مجلة الأبحاث**، الجامعة الأمريكية بيروت، نشر: دار الكتاب، بيروت، السنة 13، الجزء الأول، آذار 1960م، ص25-42؛ الشنوفي، علي، "لفظة "أمر" في القرآن"، **حوليات الجامعة التونسية** (مجلة الآداب والعلوم الإنسانية)، تونس، العدد 8، سنة 1971، ص167-205؛ شحلان، أحمد، "مفهوم الأمية في القرآن: دراسة مقارنة تحليلية في اللغات السامية"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد الأول، 1977م، ص103-125.

العالم العربي والإسلامي؛ إذ إن المناهج التقليدية أكثر تماسكاً وانسجاماً مع لغة القرآن العربية – كان له صدىً لدى بعض الكتاب ليجعلوا منه منهجاً لفهم الخطاب القرآني من خلال مفرداته، كما في كتاب "إسلام ضد إسلام: شريعة من ورق" للمؤلف الصادق النيهوم[1]، وهذه الدراسة تقتصر في منهجها النظري على إعادة الكلمات ودلالتها إلى أصولها الكلدانية والسريانية الآرامية. وعلى أساس هذا الأصل الدلالي تفسّر مفردات القرآن.

يقوم البحث الفيلولوجي أساساً على مبدأ علاقات القربى بين اللغات على امتداد زمني وتعاقبي يشمل آماداً طويلة من الزمن، ليدرس الظاهرة اللغوية عبر هذا التسلسل. وفي هذا الإطار ظهر أن علاقات القربى بين مجموعة (أسرة) لغوية واحدة إنما هي نتيجة لتحولات طارئة، وجدت قبل الظهور الفعلي المستقل لكل لغة من اللغات في هذه الأسرة، الأمر الذي جعل البحث الفيلولوجي يستمسك بالوثيقة التاريخية ويعمل عليها ليغوص في أعماق التاريخ اللغوي[2]، سعياً إلى ملامسة هذه التحولات وإدراك أصولها. إن أساس البحث اللغوي الفيلولوجي هذا لا يساعد على إدراك أصل الدلالة المعجمية القرآنية إلا بالانطلاق من خمس مسلَّمات مضمرة:

الأولى: أن محمداً ﷺ هو "مؤلف" القرآن.

الثانية: أن اللغة العربية هي لغة فرعية عن لغة أم، هي السريانية.

الثانية: أن اللغة العربية (وكل اللغات المتفرعة عن لغة أم) لم تتطور دلالياً أبداً، بل هي مجرد تعديلات صوتية عن اللغة الأم!.

الرابعة: أن **الاقتراض اللغوي** المعجمي من اللغات الأخرى لا يتضمن أي تعديل دلالي.

الخامسة: أن النسق القرآني الدلالي وسياقاته لم تؤثر مطلقاً في دلالة الأصل في اللغة الأم.

وباستثناء النقطة الأولى، التي تقوم على افتراض الأصل البشري للنصوص، وعدم الإيمان بالنبي (وهو أمر مفهوم بوصفه أمراً عقيدياً)، فإن النقاط الأخرى ـــ من وجهة نظر لسانية ـــ كلها مجرد دعاوى لا يقوم عليها برهان قاطع، بل إن الدراسات

---

[1] انظر الطبعة الثانية الصادرة عن دار رياض الريس في بيروت عام 1995م.

[2] عياشي، منذر، **اللسانيات والدلالة** (حلب: مركز الإنماء الحضاري، 1995م)، ص172.

الألسنية الحديثة (خصوصاً في النقاط: 3، 4، 5) تنقضها جملةً وتفصيلاً [1].

2. التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي - بوصفه "تفسيراً للأفكار والمواضيع، سواء أكان مجالها القرآن كله أو جزءاً خاصًّا منه"[2] - حديث النشأة والظهور، وإن كان ثمَّ خلاف بين الباحثين في تحديد زمن ظهور هذا المصطلح واستخدامه وشيوعه[3]،وتقودنا العناصر السابقة إلى إمكانية البحث في المفردة القرآنية باعتبارها موضوعاً وإخضاعها لهذا المنهج البحثي؛ فدراسة المفردة القرآنية تتجاوز عادة إلى دراسة "المفهوم القرآني"، أي إلى الفكرة المجردة أو المبدأ محمولاً في لفظ يمثل جزءاً من منظومة فكرية متكاملة.

---

[1] يندرج في إطار البحث الدلالي الفيلولوجي لمفردات القرآن الكريم الدراسة التي نشرها المستشرق كريستوف لكسمبورغ باللغة الألمانية عام 2000م بعنوان: "قراءة سريانية ـــ آرامية للقرآن: مساهمة في تحليل اللغة القرآنية"، وصدرت في برلين:
Christoph Luxenberg, *Die Syro-Aramäische Lesart Des Koran: Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache*, Das Arabishe Buch, Berlin, 2000.
وقد أثارت هذه الدراسة ضجة إعلامية عام 2003م عندما قدمت مجلة **نيوز ويك** (News Week) عرضاً مختصراً لها، استخدمت فيه نتائج دراسة استخداماً سياسياً؛ فمثلاً توصل لكمسبورغ عن طريق البحث الفيلولوجي إلى تفسير الحور العين في الجنة (والوارد ذكرهن في القرآن) ووصف القرآن لهن بأنهن ﴿كَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾ (سورة **النبأ**، الآية 33)، إلى أن المراد من هذا الوصف هو الفواكه الملأى بالعصير! **فعقبت نيوز ويك** بالقول: "إنه بناء على هذا التفسير سوف يشعر منفذو عملية 11 أيلول بالغبن والغرر!" (عدد 28 تموز 2003م).
ونشير هنا إلى أن عبد الحميد الفراهي اعتمد في دراسته "**مفردات القرآن**"، (طبع الدائرة الحميدية الهند، ط1، 1358 هـ/1939م) على البحث الفيلولوجي عند استعصاء المعنى عن البيان في المعجم العربي، فهو يذكر أنه "إذا اشتبه المعنى فطريق التوضيح تتبع استعمال لفظه، كما فعلنا بلفظ (عصر) و (آلاء)، والنظر في أصله واستعماله في أخوات العربية كالعبرانية والسريانية" (الفراهي، **مفردات القرآن**، ص9)، لكن هذا الاعتماد هو بحكم الضرورة لا القاعدة المطَّردة، كما أنه يستعمله وهو يقف على طرف نقيض مع التاريخانية التي تسم البحث الفيلولوجي الاستشراقي عموماً. ونحن نرى أن دراسة الفراهي أقرب ما تكون إلى منهج علم الوجوه والنظائر من أي منهج آخر.

[2] رشواني، سامر، **منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، 2003، ص9.

[3] المصدر نفسه، ص43، وثمة ما يشير إلى أن أصول منهج التفسير الموضوعي تعود إلى القرن الثالث الميلادي، وتحديداً إلى جهود الجاحظ (ت255هـ)، لكن البروز الجديد لهذا المنهج بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر عند المستشرقين ومنذ نهاية القرن التاسع عشر عند المسلمين، انظر: المصدر نفسه، ص69.

وعليه لا يمكن درس هذا المفهوم دون النظر في جوانب المنظومة التي هو جزء منها، وفي ذلك خروج عن حدود دلالة المفردة المباشرة إلى حدود الموضوع أو المجال الفكري الخاص الذي تدور تلك المفردة في فلكه[1]؛ وعلى هذا الأساس اعتمد بعض الباحثين منهج التفسير الموضوعي لدراسة المفردة القرآنية، وذلك على الرغم من اعتراض البعض على عدِّ تفسير المفردات القرآنية "نوعاً من التفسير الموضوعي؛ [لأنه] يتعارض جوهرياً مع مفهوم التفسير الموضوعي نفسه، بما هو تجاوز للإطار الجزئي للنص بألفاظه وتراكيبه إلى المقاصد الكلية والإطار الكلي الذي يحكم النص. لذا فإن النظر في هذه الجزئيات ينبغي ألا يتم إلا بالقدر الذي يخدم التفسير الموضوعي نفسه"[2].

نعثر على أول دراسة يمكن تصنيفها في إطار التفسير الموضوعي لمفردات القرآن عند أبي الأعلى المودودي في بحث "المصطلحات الأربعة في القرآن: الإله، الرب، العبادة، الدين" (1360هـ/1941م) باللغة الأوردية[3]. ففيه درس المودودي المصطلحات الأربعة في القرآن؛ لأنه يرى أنها "جماع ما يدعو إليه القرآن"[4]. لذلك فإن أي غموض أو التباس في هذه المفاهيم سيؤدي إلى تشويش "كل ما جاء به القرآن من الهدي والإرشاد"[5].

3. التفسير البياني

إذا كانت الأدبيَّة تعني عمليَّة تحوُّل الكلام من خطابٍ عادي إلى ممارسة فنية إبداعية جمالية، فإن المنهج الأدبي هو المنهج الذي يدرس النصوص بوصفها ممارسة فنية إبداعية جمالية اعتماداً على معايير تمثل القوانين المجردة التي تشترك فيها كل الآثار المنضوية تحت وصف الأدبية. ونظراً لأن النص القرآني يتمتع بجانب عظيم من الأدبية، فقد أغرى ذلك الباحثين لكي يطبقوا مناهج بحثية تنطلق من الأساس الأدبي للنص

---

[1] المصدر نفسه، ص141.

[2] المصدر نفسه، ص142.

[3] نشرها المودودي في مجلة **ترجمان القرآن** التي كان يصدرها هو نفسه في الهند، ونشرت ترجمتها العربية الأولى عام 1961م.

[4] المصدر نفسه، ص5.

[5] المصدر نفسه، ص7.

القرآني، وهو أساس إذا أخذ إلى نهايته فقد يؤدي إلى أنسنة النص ونزع قدسيته.

هذا النوع من الدراسات في العالم العربي كانت بدايته مع مدرسة "الأمناء"[1] التي برزت منذ أربعينيات القرن الميلادي الماضي، مستفيدةً من المناهج الألمانية الحديثة في النقد الأدبي، والتأوّلية (Hermeneutics) على وجه التحديد، بحيث كان لتلك المعارف مكان بارز في منهجهم[2]، كما كانت معتمدةً في الوقت نفسه على المناهج التراثية، وخصوصاً نظرية النظم[3] التي ابتكرها العلامة عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"[4]، فضلاً عن الاستفادة من منهج التفسير الموضوعي[5]. وتعتبر دراسة المفردات القرآنية من أولويات التفسير البياني[6]، بل هي أهم سماته، وقد برزت بشكل واضح في دراستين مهمتين، الأولى: "وصف القرآن ليوم الدين والحساب" لشكري محمد عيَّاد[7] (في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي)، والثانية: "التفسير البياني للقرآن

---

[1] مدرسة في الدراسات القرآنية تنسب إلى أمين الخولي، وهي مدرسة شكَّلت منهجاً خاصاً في تفسير القرآن سمي بـ"التفسير الأدبي" (حسب تسمية أمين الخولي نفسه مؤسِّس المنهج)، اعتُمد فيه على نظرية النظم المعروفة عند عبد القاهر الجرجاني، والتفسير الموضوعي الذي كان آخذاً بالتبلور في عصره، واستفيد فيه أيضاً من مناهج النقد الأدبي الحديث والتأوُّلية (Hermeneutics) الألمانية على وجه التحديد.

[2] حول تأثر الأمناء بالتأوُّلية الألمانية انظر: الشريف، محمد إبراهيم، **اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر** (القاهرة: دار التراث، ط1، 1982)، ص532؛ ومحمد، عروي، **مناهج التحليل والتفسير للخطاب القرآني**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1994 (مرقونة)، ج1، ص193-241.

[3] نظرية النظم كما هي عند عبد القاهر الجرجاني هي نظرية في الدلالة النحوية، تدرس كيفية إنشاء الكلام اعتماداً على معنى سابق لدى المؤدي للكلام (المتكلم)، وقامت على أساس نقد نظريات إعجاز القرآن السابقة ونقد النحو القائم على العلامة الإعرابية. انظر: مصطفى، حميدة، **نظام الربط والارتباط في الجملة العربية** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1997)، ص9-10، و22.

[4] الكتاب محقق ومطبوع عدة طبعات، أشهرها تلك التي طبعت بتحقيق محمود محمد شاكر.

[5] الشريف، **اتجاهات التجديد**، ص601. وانظر كذلك: الرومي، فهد، **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير** (الرياض: مكتبة الرشد، ط5، 1422هـ)، ج1، ص238؛ والعمري، أحمد جمال، **دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ط، 1986م)، ص72.

[6] يذكر أمين الخولي أن "دراسة القرآن نفسه تبدأ بالنظر في المفردات» انظر **مناهج تجديد** -سلسلة الأعمال الكاملة/11- (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1995م)، ص237.

[7] وهي رسالته للماجستير، وقد طبعت بعنوان: **يوم الدين والحساب: دراسات قرآنية** (بيروت: دار الوحدة، ط1، 1984م).

الكريم" لعائشة عبد الرحمن[1] (عام 1962م)، ثم ظهر هذا المنحى بشكل أكثر وضوحاً في كتابها "الإعجاز البياني للقرآن الكريم"[2].

وقد بدت آراء الخولي في منهج التفسير أقربَ ما تكون إلى "صورة ملحوظات نظرية مقتضبة، أو إشارات عامة تهمس بالمعنى دون أن تفصل القول فيه، أو تباشر التطبيق مباشرة فعالة"[3]. وقد حاول تلاميذه التقاط هذه الملحوظات والإشارات وتحويلها إلى تصور متكامل بالاستفادة المباشرة وغير المباشرة من تلك العلوم بما أتاحته لهم دراساتهم الأدبية في الجامعات الأوربية من الاطلاع على ما حققته الدراسات النقدية في أوربا من تقدم، فأفادوا من قواعدها وموازينها النقدية، ومن معرفتهم بالتراث في بلورة المنهج[4].

والقاعدة التي يؤسس عليها الخولي التفكير في المنهج الجديد هي أن "أول التجديد قتل القديم فهماً"[5]، وهذا يعني ضرورة الاستناد إلى معرفة تراثية عميقة، تمتد لتشمل كل ما هو متعلق بمحيط القرآن من ملامح البيئة العربية المادية والمعنوية إبان نزول الوحي وكذلك قبله وبعده، وأسباب النزول وظروف جمع القرآن وكتابته والقراءات ..إلخ، وهي معرفة أقرب ما تكون إلى المعرفة الأنثربولوجية للحياة العربية لذلك الوقت.

هذه المعرفة الخارجية تكملها دراسة جوانية تستجلي آفاق القرآن المفاهيمية، وحسب منهج الخولي الأدبي فإن نقطة الانطلاق لهذه الدراسة الجوانية (الداخلية) لـ "دراسة القرآن تبدأ بالنظر في المفردات"[6] في ضوء المعرفة الأنثربولوجية السابقة، وتضاف إليها معرفة بتاريخية المفردات ومشكلاتها في المعجم العربي، بل يصل التدقيق في الأصل المعجمي للمفردة القرآنية إلى مستوى البحث الفيللوجي.

---

[1] عن دار المعارف، القاهرة، ثم ظهرت طبعته الثانية عام 1966م، ثم الطبعة الثالثة عام 1968.

[2] صدر أيضاً عن دار المعارف، القاهرة، ط1، 1971م.

[3] عروي، **مناهج التحليل**، ج1، ص188.

[4] انظر: المصدر نفسه، ج1، ص143-144، والشريف، **اتجاهات التجديد**، ص532.

[5] الخولي، **مناهج تجديد**، ص229.

[6] المصدر نفسه، ص237.

وإذا ما انتهى البحث المعجمي للمفردة صار واجباً على المفسِّر الانتقال بعد ذلك إلى "معناها الاستعمالي في القرآن؛ يتتبع ورودها فيه كله، لينظر في ذلك فيخرج منه برأي عن استعمالها: هل كانت له وحدة اطردت في عصور القرآن المختلفة ومناسباته المتغيرة؟ وإن لم يكن كذلك فما معانيها المتعددة؟"[1].

بين المفرد والجملة والنص يتحرك نظر المفسر الأدبي مستصحباً ومتمثلاً الرؤية البلاغية الفنية الأدبية في فهم القرآن وإدراك قسماته وخصائصه الأسلوبية التي تميزه عن مختلف فنون القول العربي وتمنحه جماله الأدبي[2].

وفي سياق تكميل المنهج الأدبي البياني وشروحه[3] أصبح نفي الترادف أساساً لدراسة المفردات؛ غير أن نفي الترادف كان بمثابة نتيجة لخبرة في ممارسة التحليل البياني للنص، فالمبحث البلاغي أساساً يقوم على تلمُّس التميز والتفرد الفني. فكيف إذا كان الأمر متصلاً بنص موصوف بالإعجاز؟ ولهذا السبب تأثر أصحاب المنهج الأدبي بنظرية النظم الجرجانية التي وجدوا فيها ضالتهم في فهم القرآن.

وفضلاً عن نفي الترادف، هناك الأصل الحسي للمفردات، الذي يستخدمه أصحاب هذا المنحى في التفسير قاعدةً في فهم دلالة المجاز وأوجه البيان والبلاغة في النص القرآني؛ لأنها "تعطينا حس العربية للمادة في مختلف استعمالاتها"[4].

وأخيراً وتتويجًا لدرس المفردة القرآنية بالبحث عن "مرامي القرآن الإنسانية"[5] في إطار التفسير البياني تأتي دراسة شكري محمد عياد (تلميذ الخولي) لخطاب القرآن عن "يوم الدين والحساب"، لكن دراسة المفردة القرآنية لدى البيانيين فيما بعد أصبحت مجرد نوع من الصناعة المعجمية القرآنية.

---

[1] المصدر نفسه، ص238.

[2] المصدر نفسه، ص239.

[3] نقصد بذلك جهود أهم تلاميذ الخولي: محمد أحمد خلف الله، وشكري محمد عيَّاد، وعائشة عبد الرحمن.

[4] عبد الرحمن، عائشة، **التفسير البياني للقرآن الكريم** (القاهرة: دار المعارف، ط3، 1968م)، ج1، ص11. وعموماً فإن معظم التطبيقات التي قام بها الأمناء لم تهمل هذه القاعدة. وانظر مناقشة الأصل الحسي للمفردات عند الأمناء في : عروي، **مناهج التحليل**، ص357-373.

[5] عياد، **يوم الدين والحساب**، ص25.

4. الدراسة اللسانية

الظنُّ أن دراسة العالم الياباني توشيهيكو إيزوتسو "بنية المصطلحات الأخلاقية في القرآن: دراسة في الدلاليات"[1] الصادرة أول مرة سنة 1959 هي أول دراسة باللغة الإنجليزية استفادت من المناهج الحديثة في علم الدلالة (Semantics) واللسانيات الأنثروبولوجية على وجه التحديد، كما تعتبر دراسة آلارد وزملائه "تحليل مفهومي للقرآن"[2] الصادرة عام 1963م أول دراسة من هذا النوع في اللغة الفرنسية فيما طلعت عليه.

أخذت مناهج النقد الأدبي واللسانيات طريقها إلى العالم العربي منذ نهاية السبعينيّات وبداية الثمانينيّات من القرن العشرين، وبدأت تتسرب إلى كل حقول المعرفة الإنسانية، وبدأت تتصاعد وتيرة تطبيق المناهج الحديثة على النص القرآني منذ صدور كتاب "العالمية الإسلامية الثانية"[3] 1979م للمفكر السوداني محمد أبو القاسم

---

[1] *Structure of the Ethical Terms in the Koran: A Study in Semantics Studies* (Tokyo: Keio Institute of Cultural and Linguistic Studies, 1st edition, 1959).

[2] M. Allard, M. Elziere, J.C. Gardin, F. Hoursce, *Analyse Conceptuelle du Coran* (Paris-Lahay : Mouton & C. 1963), vol. 1, vol. 1, Code 110, p. 11; vol. 2, *Commentaire*, p. 187.

وقد "قام هؤلاء الدارسون بتقسيم النص القرآني على أساس لائحة مكونة من 430 فكرة (Notion) تقابل كل فكرة من هذه الأفكار بطاقة قابلة معدة لتحيل إلى فقرات معينة من نص القرآن، وجُمعت هذه الأفكار بحسب مقولات، كما يلي: 1. كائنات فاعلة (الله، الملائكة، الشياطين، الأنبياء)، 2. صفاتهم وسلوكهم؛ أي أفعالهم (الرحمة، الغواية، الطاعة)، 3. معطيات أخروية (البعث، الحساب، الجنة ...الخ). إن التأليف بين هذه البطاقات بحسب قواعد تركيب محدَّدة يتيح صياغة موضوعات للبحث تنصبُّ على الترابط الحاصل بين "الأفكار" المستقاة، ويلح التعليق [تعليقهم] على الطابع النفعي المحض للعمل الذي قاموا به. أما الفهرس فهو عبارة عن أداة لتحجيم البحوث وتهذيبها بدل إعطاء حل لها، وهو لا يقدم العدد المضبوط للفقرات الملائمة حول موضوع معين، بقدر ما يوفر لائحة من الإحالات التي يقوم بها الباحث بعد ذلك باختيار ما يريده منها". نقلاً عن: محمد البكري، ملحق ترجمته لكتاب "**مبادئ في علم الأدلة**"، رولان بارت (اللاذقية: دار الحوار، ، ط2، 1987م ، ص157-158، ويعزو إلى:

Allard *et al., Analyse Conceptuell*e, vol. 2, p. 39.

ونشير هنا أيضاً إلى دراسة ظهرت بالفرنسية بعد ذلك لـــ أ. مايكل، بعنوان "**إعادة قراءة القرآن**":

A. Miquel, "Pour Une Relecture du Coran, Autour de la racine NWM", *Studia Islamical,* 1978, p. 5 and 48.

[3] انظر طبعة دار ابن حزم، بيروت، 1996م.

حاج حمد، الذي اعتمد في دراسته للقرآن على مقولات فلسفية ولسانية، مروراً بمحاولة محمد أركون في دراسة سورة الفاتحة[1] والكهف، ومحمد شحرور في كتابه المعروف "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة"[2] (1990م) وغيرها من الأعمال حيث أوشكت القراءة المعاصرة أن تتحول إلى ظاهرة عامة[3].

لقد اعتمدت هذه الدراسات المعاصرة للقرآن الكريم في معظمها على دراسة دلالة المفردة القرآنية وتأويلها، والسؤال: لماذا كانت المفردة القرآنية محل تركيز تلك القراءات؟

الجواب ببساطة أنه إذا كانت المنظومة الإسلامية الفكرية (بما تتضمنه من اعتقاد وتشريع وأخلاق ... الخ) تقوم على مجموعة مفاهيم قرآنية، فإن هذه المفاهيم قائمة على عدد من المصطلحات يشكل معظمها مفردات قرآنية، وذلك يعني أن إعادة تأويل هذه المفردات يمكن من إعادة تأويل الخطاب كله وتحليله. وهذا ما دفع - مثلاً - توشيهيكو إيزوتسو لدراسة مفردتي "الله" و"الإنسان" وما يدور حولهما من مفردات القرآن من خلال علم الدلالة، بهدف كشف "رؤية العالم في القرآن من خلال مفرداته"[4]؛ أي إن هذه القراءات الجديدة تدرك جيداً دور المفردات في تحليل الخطاب القرآني.

---

[1] دراسة بالفرنسية في سورتي الفاتحة والكهف ضمن كتابه "قراءات في القرآن" 1981م، وتُرجمت دراسته إلى العربية في مجلة الحياة الثقافية (تونس)، العدد 56، 1990م)، وأخيراً ظهرت لها ترجمة جديدة في كتاب أصدره مؤخراً بعنوان **القرآن: من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني**، ترجمة هاشم صالح (بيروت: دار الطليعة، ط1، 2001).

[2] دار الأهالي، دمشق، ط1، 1990م، ص83. وهناك أيضاً دراسة حاولت تطبيق المنهج اللساني على القرآن، لكنها غير منشورة، وهي في الأصل أطروحة دكتوراه في جامعة السوربون الجديدة (في فرنسا) قدمها عام 1989م البدراوي، اليعقوبي، بعنوان: "سيميائية سورة الأعراف،: الخطاب القرآني والخطاب التفسيري القديم". انظر تقريراً عنها في: مجلة **التواصل اللساني**، مجلد 3، عدد1، آذار/مارس 1991م، ص69-75، نقلاً عن: عروي، **مناهج تحليل**، ج1، ص232، حاشية 97. وقبلها دراسة صغيرة لمحمد مفتاح بعنوان: "الانسجام في النص القرآني"، وذلك ضمن كتابه "دينامية النص" الذي صدر أول مرة سنة 1987م، انظر مفتاح، محمد، **دينامية النص: تنظير وإنجاز** (الدار البيضاء/بيروت: المركز الثقافي العربي، ط2، 1990م)، ص189-223.

[3] فقد أضفت أطروحة شحرور (الأيديولوجية) على القراءة المعاصرة تأكيداً لتكرار البحث بمناهج غربية، ومنحت القراءة المعاصرة كثيراً من الوضوح لما رافقها من صخب وما تضمنته من استفزاز، وزادت قضية ردّة نصر حامد أبو زيد الذي قدم دراسات في القرآن تعتمد منهجيات حديثة من تأكيد هذه الظاهرة.

[4] Izutsu, *God And Man in The Koran: Semantics of The Koranic Weltanschauung* (Tokyo: The Keio Institute Of Cultural and Linguistic Studies, 1st edition, 1964), p. 36.

وذلك يعني أن أي تغيير في تأويل دلالة تلك المفردات القرآنية سيؤدي بالضرورة إلى تغيير في المنظومة نفسها (بغض النظر عما يسمح به النص القرآني من إمكانيات لهذا التأويل وعن حدوده)، وهو الذي دفع الدراسات العربية في همها المذهبي (الإيديولوجي) لتناول تلك المفردات والاتكاء عليها في صياغة جديدة للتصورات المشكلة للمنظومة الفكرية الإسلامية. فشحرور - على سبيل المثال - يصرح بتطبيقه "المنهج العلمي التاريخي" و"المنهج المادي الجدلي" الذي "بيَّن" له أن قوانين الجدل المادي وتغيّر الصيرورة (التطور) هي العمود الفقري لقوانين الوجود في القرآن "النبوة"![1] وذلك بغية صياغة ما أسماه "نظرية معرفة" إسلامية "صياغة معاصرة"[2]. فقد أجرى — كما يقول - مسحاً شاملاً للقرآن من أجل هذا الغرض، حدد فيه "المصطلحات الأساسية"[3]؛ ثم قام بتأويلها طبقاً لمسلماته المذهبية بالرغم من ادعائه الغريب والباهت بالحيادية والموضوعية.

وهكذا فإن إدراك خطورة تأويل دلالة المفردة القرآنية في رسم معالم الخطاب القرآني - وبالتالي إعادة تشكيل التصورات والمفاهيم الإسلامية الأساسية - كان سبباً كافياً وعميقاً للاهتمام الكبير بها بما جعلها تتحول إلى ظاهرة في القراءات المعاصرة.

آفاق لدراسة الخطاب القرآني اعتماداً على المفردة

يمهِّد مفهوم الخطاب بذاته مسألة تأويلهِ ويرسم حدودها، ذلك أن الخطاب يتمثَّل في مجموع القضايا المنطقية التي تحملها النصوص، وحدود الخطاب بالتالي هي حدود هذه القضايا، وهذا ما يجعل بإمكاننا تجزيء الخطاب إلى: خطابات جزئية وخطاب كلي. غير أن الخطاب الكلي ذاته يتحدد بمساحة النصوص الحاملة له، وبخصوص دراستنا فإن الخطاب الكلي هنا محدود بحدود النص القرآني ذاته، وهو ما نعنيه بـ"الخطاب القرآني".

---

[1] شحرور، **الكتاب والقرآن**، ص40 و42.

[2] يعتبر أن هذا أحد أهدافه في كتابه الذي يمثل فاتحة مشروعه، انظر: المصدر نفسه، ص30-31.

[3] المصدر نفسه، ص38.

لكن علينا أن نسأل – قبل المضي في البحث – عن الفرق بين تأويل الخطاب وتحليله؟ فعلى الرغم من أن مصطلح "تحليل الخطاب" (Discourse Analysis) هو مصطلح لساني حديث، إلا أن الدراسات اللسانية – في حدود علمنا – لم تميِّز عموماً بين "التحليل" (Analysis) و"التأويل" (Interpretation)، ومن الملاحظ أنه قلما يتم – في الدراسات اللسانية – الربط بين "الخطاب" و"التأويل"، فيما يكثر استعمال "التأويل" مقترناً بـ"النص". أما في التراث العربي، فإنه لم يستعمل مصطلح "تحليل الخطاب" أساساً بما في ذلك تراث علماء الأصول المسلمين[1]، بل استعمل "تأويل الخطاب"[2]، و"تأويل النص"[3]. غير أننا سنعتمد للخطاب مصطلح "التحليل"، وللنص مصطلح "التأويل"، وذلك جرياً مع الاستعمال اللسانيين الغالب في الدراسات الاجتماعية المعاصرة اليوم.

وهنا نسأل: ما الدور الذي أنيط بالمفردة القرآنية في مناهج قراءة أو تأويل النص وتحليل الخطاب القرآني؟ إن المبدأ الذي يُجمِعُ عليه علماء المفسرين والأصوليين هو أن أي تأويل أو تفسير ينبغي أن يبتدئ أساساً من المفردة، فـ"الذي يجب على المفسر البداءة به العلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه"[4]. ولا يشذ عن هذه القاعدة تضميناً أو تصريحاً أحد من العلماء القدماء، مما يحسم الموقف لمناهج تفسيرية تعتمد استراتيجية قراءة تصاعدية[5] للقرآن تبدأ من المفردة.

---

[1] يستخدم عادة مصطلح "التحليل" مقابل "التحريم"، والأصل الدلالي اللغوي للمصدر "تحليل" لا يساعد في أن تكون في مصاف كلمة "التأويل".

[2] انظر مثلاً: آل تيمية، **المسودة في أصول الفقه**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: دار المدني، د.ت)، ص146.

[3] انظر مثلاً: الآمدي، سيف الدين أبو الحسن بن علي، **الإحكام في أصول الأحكام** (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1990م)، ج3، ص220.

[4] الزركشي، بدر الدين عبد الله بن بهادر، **البحر المحيط في أصول الفقه**، تحقيق عبد القادر العاني وعمر سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الكويت: دار الصفوة، الغردقة، ط2، 1992م)، ج2، ص313.

[5] هناك استراتيجيتان رئيستان لقراءة النص: **الاستراتيجية التصاعدية** التي تنطلق من الجزئي إلى الكلي، ومن الخاص إلى العام، لتنتقل من الحرف إلى الكلمة والمفردة إلى الجملة، ومن الجملة إلى النص، و**الاستراتيجية التنازلية** التي تبدأ من العام نزولاً إلى الخاص، ومن الكلي إلى الجزئي، ومما هو مذكور لاستنباط ما ليس مذكوراً. وفي إطار هاتين

وإذا كان هناك نقاش للباحثين الجدد حول جدوى هذه الاستراتيجية، معتمدين السياق أساساً، ومستندين إلى الاستراتيجية التنازليّة؛ فذلك لأنهم انطلقوا من منظور دلالي نحوي، وليس من منظور أصولي استقبالي. وأياً ما كان فإن الاستراتيجية الفعلية التي تمرّ بها كل الاستراتيجيات - بما فيها التنازلية - هي الاستراتيجية التصاعدية، ذلك أنه من غير الممكن الوصول إلى المعنى الكلي دون المرور أولاً بالمعاني التفصيلية الجزئية، حتى لو كان العنوان تلخيصاً مثالياً للنص[1] (على فرض وجود عنوان للنص؛ إذ ليست كل النصوص لها عناوين باستثناء القرآن الكريم). ولا بد من ملاحظة أن عناوين السور القرآنية - فيما لو افترضنا السورة نصاً مستقلاً نسبياً - لا تلخص غالباً موضوعها، وهي ذاتها تحتاج لبحوث مستقلة لمعرفة وظيفتها في السورة، وفي الخطاب القرآني عامة[2]. بل يمكن القول إن اعتبار اسم السورة أصلا في الكشف عن مضمونها هو نظر جزئي مختزل يقيد المفسر ويعوقه عن إدراك الوحدة المعنوية الكلية للسورة؛ إذ قانون تسمية السور لا صلة واضحة له بالنظام الكلي للسورة، وإنما يقوم على مسوغات مختلفة تتصل بالبعد الرمزي للسورة وليس بالضرورة بقضايا السورة والبناء المعنوي الذي تطرحه، كما يدل على ذلك استقراء مختلف سور القرآن[3].

الاستراتيجيتين الرئيسيتين تُنحتُ كل الاستراتيجيات الأخرى وفقاً لمنظورها للنص ومفهومها له. انظر مثلاً: مفتاح، محمد، **المفاهيم معالم: نحو تأويل واقعي** (بيروت/الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 1999م)، ص33.

وقد جعل مفتاح الاستراتيجيات الرئيسية المعروفة **ثلاثة**، غير أن تمحيص النظر فيها جعلنا نقول باثنين تنطوي كل الاستراتيجيات الأخرى تحتها، وهو نفسه يعود في الأخير إلى استراتيجيتين رئيستين، سمَّاهما: **الاستراتيجية الاستدوانية**، و**الاستراتيجية الاستئطارية**، وهما في المحصلة تعودان إلى ما ذهبنا إليه.

[1] هناك نظريات عديدة حول مدى تمثيل العنوان للخطاب ودوره في تحليله. انظر: براون ويول، **تحليل الخطاب**، ص87 وما بعدها.

[2] هناك معالجات نادرة في التراث لهذا الموضوع نجدها عند البقاعي والزركشي مثلاً.

[3] رشواني، **منهج التفسير الموضوعي**، ص249. ويعد البحث في اسم السورة من القضايا المنهجية في مباحث التفسير الموضوعي. وانظر خلاصة ما توصلنا إليه في فرضيتنا لـ"**محور التركيب**" لسور القرآن الكريم، في دراستنا "**دلالة المفردة القرآنية: دراسة لسانية أصولية مقارنة**" رسالة ماجستير، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت، ص201-205، وص286-287.

وقد درس التفسير الموضوعي (في بعض الأحيان) المفردة القرآنية باعتبارها تشكل موضوعاً، وتمثل مفاهيم تجريدية تؤلف جزءاً من الخطاب القرآني. وبغض النظر عن الخلاف حول مشروعية اعتبار دراسة المفردة القرآنية تفسيراً موضوعياً أم لا،[1] فإن الدراسات التي أجريت على مفردات القرآن أثبتت فعلياً أنها تقدم إسهاماً كبيراً في تحليل الخطاب، وهو ما يتفق مع توجهات تحليلية حديثة؛ ففي إطار الاستراتيجيا التصاعدية تستخدم نظريات الأسلوبية والدلالية التي تعتمد مبدأ "الكلمات المفاتيح"[2] (Key Words)؛ حيث بالإمكان تحويل الكلمات المفتاحية إلى أداة تحليل ناجعة للنص باستخدام الحقول الدلالية[3]، كما فعل توشيهيكو إيزوتسو في دراسته "الله والإنسان". ولهذا السبب فإن معظم الدراسات الحديثة والمعاصرة التي اعتمدت دراسة المفردة القرآنية كانت تهدف إلى تحليل الخطاب القرآني وكشف أبعاده.

ولكن هل الحقول الدلالية والكلمات المفاتيح هي الإمكان الوحيد لتحليل الخطاب؟ الجواب من وجهة نظرنا بالنفي؛ لأن إدراكنا بأن الخطاب يمثل بنية مفاهيمية

---

[1] اعتبر بعض الباحثين أن دراسة المفردة القرآنية ـــ على أهميتها ـــ لا تدخل في التفسير الموضوعي؛ لأنها تنقض مبدأ النظر الكلي الذي يقوم عليه منهجه! (انظر: الدغامين، محمد زياد، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم** (عمان: دار البشير، عمان، ط1، 1995م)، ص15. كما اعتبر بعض الباحثين أن دراسة المفردة القرآنية هي جزء من التفسير الموضوعي؛ لأنها تدرس بالأدوات نفسها التي تدرس بها الموضوعات، كما أنها تشكل موضوعات في كثير من الأحيان (انظر: أبو راس، محمد عايش، **دراسة موضوعية في سورة الزمر**، رسالة تكميلية لدرجة الماجستير، قسم أصول الدين في كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، 1986م، ص 54، والخالدي، صلاح عبد الفتاح، **التفسير الموضوعي بين النظرية التطبيق**، (عمان/الأردن: دار النفائس، ط1 ، 1997م)، ص 52؛ حللي، **المفاهيم والمصطلحات**، ص69-70).

[2] أو "الكلمات المفتاحية" وهو مصطلح أسلوبي ودلالي يشير إلى الكلمات التي تكتسب أهمية خاصة في النص، وتُكتشف بسبب وصول معدل تكرارها إلى معدلات غير عادية في النص مقارنة بنصوص أخرى، وهي لا تتكرر لدى كاتب بحكم الموضوع المعالج؛ أي لا يفرضها طبيعة الموضوع، وإنما هي تلك التي تتكرر بطريق زائدة عن المعدلات العادية لدى أمثاله الذين يتناولون نفس الموضوع مما يعطيها دلالة متميزة. انظر: عزام، محمد، **التحليل الألسني للأدب** (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ط1، 1994م)، ص103.

[3] انتقلت دراسة الكلمات المفاتيح من الاكتفاء بالإحصاء إلى دراستها ضمن حقول دلالية؛ لاستكشاف العناصر المستقلة فيها وعلاقات التبادل والتضاد بينها وتحليل شبكة علاقاتها؛ للتوصل إلى تحليل للنص. انظر: عزام، **التحليل الألسني للأدب**، ص104-105.

منطقية يسمح لنا باكتشاف أبعاد الخطاب من خلال تحليل "المفاهيم" التي يتضمنها وعلاقاتها "الشبكة المفهومية"[1]. وباعتبار أن المفاهيم الخاصة لا تتجلى إلا عبر اصطلاحات، فإن ذلك يقتضي أن البُنى الاصطلاحية للقرآن الكريم يمكن أن يكون بها أثر رئيس في تحليل الخطاب، فالرصيد الاصطلاحي هو الذي مكّن النص القرآني أن يعبِّر عن المفاهيم الجديدة التي أنشأها خطابه.

سنعرض فيما يأتي إلى عدة مرتكزات يمكن أن نستند إليها في تشكيل استراتيجيات ووسائل تحليل الخطاب القرآني عبر مفرداته. وإذ نفعل ذلك فإننا قبله ننوِّه إلى أن وسائل تحليل الخطاب واستراتيجياته ليست أمراً محدوداً، فابتكار الأدوات وطرق التحليل ومناهجه أمر لا يتوقف؛ لأنه يتطور بتطور البحث العلمي على الدوام.

1. النظام المفهومي

تؤمِّن البُنى الاصطلاحية والمعجمية **البنية العميقة** [المصطلحات المفتاحية]، و"**البنية الحافَّة**" [المصطلحات التابعة][2] إمكانية كبيرة لاكتشاف "الشبكة المفهومية" ضمن علاقات منظَّمة، فالبنية العميقة وعبر ارتباطاتها بلفظ الجلالة (الله) تُمَكِّننا من الإمساك بالمفاهيم الرئيسية في القرآن، حيث تلتف حولها المفاهيم الأخرى تناسلاً منها أو استناداً إليها؛ ذلك أن وظيفة المصطلحات تكمن أساساً في تقديم التصورات والمفاهيم الجديدة[3]

---

[1] الشبكة المفهومية مصطلح استعمله أول مرة في دراسة القرآن الباحث الياباني Toshihiko Izutsu، انظر: *God & Man*، p. 2.

[2] توصل الباحث في دراسة سابقة إلى أن البنى الاصطلاحية للقرآن نوعان: الأولى تتألف من المفردات التي تتصل مباشرة بلفظ الجلالة، بطرقة من طرق الإسناد وأطلق عليها اسم "البنى العميقة"، والثانية لا تتصل بلفظ الجلالة بشكل مباشر، بل عبر مصطلحات وسيطة، وأطلق عليها اسم "البنى الحافة".

[3] هناك خلاف واسع بين الباحثين حول مدلول "المصطلح" ومدلول "المفهوم"، (انظر: حللي، عبد الرحمن، "المفاهيم والمصطلحات القرآنية: مقاربة منهجية"، مجلة **إسلامية المعرفة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت- واشنطن، السنة التاسعة، العدد 35، شتاء 2004م، ص77-88). ونحن نعتمد تعريف المصطلحات بأنها الكلمات التي حُمِّلَت معاني جديدة أو حُوِّلت دلالتها تحولاً كلياً، والمفاهيم هي تصورات نظرية ذهنية مجردة، وبالتالي قد يعبَّر

بالاستعانة بالمفاهيم والتصورات السائدة المعبر عنها بمفردات لغوية معجمية صرفة.

وعلى هذا الأساس فإن دراسة المصطلحات عبر علاقاتها البنيوية يمكن أن تكشف "الشبكة المفهومية" أو"النظام المفهومي" للقرآن، وعندما نقول: النظام المفاهيمي فإننا نتحدث عن علاقات منطقية بين المفاهيم بطبيعة الحال، ومجموع المفاهيم سيؤلف بطبيعة الحال جزءاً من الخطاب القرآني، أو ما يمكن تسميته بالخطاب الرئيس. هذا الخطاب يمثل أساسيات التصور الكوني الجديد الذي جاء به القرآن[1]، أما باقي أجزاء الخطاب فإن امتداد العلاقات بين المفردات في إطار النص القرآني كفيلة في تحديد باقي أجزاء الصورة.

إن اعتماد النظام المفهومي مبدأً للتحليل يضعنا أمام نمط تحليل كلي لخطاب القرآن الكريم، بحيث نجد أنفسنا نكتشف بشكل متصاعد أجزاء الخطاب تباعاً وفق منطق **علاقات التراسل** التي سلف الحديث عنها، بحيث لا يمكننا تصور الخطاب ومعرفة تفاصيله إلا عبر حركة تحليل المفاهيم التي حملتها المفردات القرآنية بأشكالها المختلفة، أي عبر ثلاث حلقات دائرية تبدأ من المركز الاصطلاحي (لفظ الجلالة)، وتمتد إلى الأطراف، حيث الحواف اللغوية التي بقيت على أصلها دون تعديل كلي دائم.

وكمثال يوضح سير العملية التأويلية للتوصل إلى تحليل الخطاب، نلاحظ كيف أن لفظ الجلالة (الله) يرتبط بعدد كبير من المفردات، التي تشكل ما أسميناه "البنية العميقة"، مثل مفردة "الكتاب" (وهي مصطلح مفتاحي) التي ترتبط على نحو مباشر بلفظ الجلالة، في تعبيرات متعددة[2] أهمها "كتاب الله"[1]، وحيث سيقودنا مصطلح "الكتاب" إلى ارتباطات

عنها بأكثر من مصطلح، انظر: الزواوي، الحسين، "ما المفهوم؟: دلالة المفهوم وعوامل تشكُّله وإبداعه"، مجلة **الفكر العربي المعاصر**، عدد 102، سنة 1998م، ص31-32.

هربرت بيشت، وجنيفر دراسكاو، **مقدمة في علم المصطلحية**، ترجمة محمد حلمي خليل (الكويت: مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت، 2000م)، ص135-139.

[1] إن العلاقات بين المفردات القرآنية في إطار النظام المفاهيمي الكلي للقرآن يمكن أن تكشف عن الرؤية الكلية للقرآن، هذا ما كان قد توصل إليه توشيهيكو إيزوتسو. انظر: Izutsu, *God and Man*, p. 9.

[2] فهناك عبارات مثل: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (الأنعام: 91، 155)؛ الشورى: **17**)، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ (الأعراف: 196)، ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ (فاطر: 32).

كثيرة مع مصطلحات مفتاحية أخرى مثل: "الهدى"، و"التنزيل"، و"القرآن"، و"الكفر"، و"الرسول"، و"الإيمان"، و"الآيات"، و"الحق"، و"الأمر"... إلخ، ودراسة العلاقات الدلالية بين هذه المصطلحات جميعاً ياعتبارها تشكل خطاباً واحداً هو "الخطاب الرئيس".

ومع تتبع العلاقات والتراسل القائم بين مصطلح "الكتاب" والمصطلحات التابعة (مصطلحات البنية الحافة)، تتكشف لنا مساحات جديدة من الخطاب القرآني، فالكتاب يرتبط على نحو مباشر بمفردات اصطلاحية غير مفتاحية (أي لا ترتبط مباشرة بلفظ الجلالة) مثل: "أهل الكتاب"، "الذين أوتوا الكتاب"، وبنحو غير مباشر (بأنماط علاقات متنوعة؛ كالتجاور، والعطف، والمفعولية، والتقييد) مع مفردات مثل: "الفرقان"، "شقاق"، "الخاسرون"، "اختلاف"...الخ.

وباستكمال تتبع علاقات التراسل بين المصطلحات التابعة والمفردات العادية المعجمية التي تربطها وشائج خاصة مع المصطلحات التابعة، (مثل التقييد (الوصف)، والعطف، والمفعولية..الخ) يمكن أن نصل إلى صورة متكاملة عن الخطاب القرآني، لكنه ليس بالضرورة تحليلاً شاملاً وحصرياً له، بل إن هذه الأسلوب في تحليل الخطاب – على صعوبته – لا يعدو أن يكشف وجهاً من وجوه الخطاب التي قد تكشف طرق ومناهج أخرى مما لم يتم كشفه هنا. غير أن الميزة هنا أن تحليل الخطاب يقوم بشكل مميز في كشف النظام المفهومي للقرآن، عبر شبكته المفهومية.

ولكن نود التنبيه هنا إلى أن استخدام المفردات في تحليل الخطاب لا يعني بالضرورة الاقتصار على أدوات تحليل معجمية بسيطة، بل إن ذلك يقتضي أن تكون المفردة هي نقطة الاستناد الرئيسة التي تستخدم أداةً أولى لتحليل الخطاب تستصحب معها جملة أدوات منهجية أخرى؛ كالتفسير التحليلي والتفسير الموضوعي[2] وغير ذلك.

---

[1] تكرر التعبير في تسعة مواضع في السور والآيات التالية: البقرة: 101، وآل عمران: 23، والمائدة: 44، والأنفال: 75، والتوبة: 36، والروم: 56، والأحزاب: 6، وفاطر: 29.

[2] مع ملاحظة أن التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي منهجان لدراسة القرآن الكريم، إلا أنهما يصبحان أداتين في تحليل الخطاب القرآني عبر المفردات.

2. الخطاب القرآني بوصفه مجموع خطاب المفردات

إن مناهج تحليل الخطاب بطبيعة الحال ليست واحدة، وبإمكاننا اقتراح مناهج عديدة، فمن جهة المنهج متعلق بقدرة الإنسان على الإبداع والابتكار من جهة، ومن جهة أخرى النص الذي بين أيدينا (القرآن الكريم) نص نفترض مسبقاً أنه نص خالد وقادر على توليد المعنى.

هناك نموذجان ممكِنان أيضاً في تحليل الخطاب القرآني، كلاهما يقوم على تشكيل خطابات جزئية مفردة، يتم تجميعها وفق نظام خاص لتؤلف الخطاب الكلي، وهذا النوع من التحليل يستثمر مفاهيم وأدوات جديدة عن المنهج السابق.

أ- خطاب المفردة:

بالإمكان البحث في المفاهيم التي حِيكت في القرآن عبر خطاب خاص بمفردة بعينها، ليست بالضرورة من المصطلحات المفتاحية، بل قد تكون مفردة معجمية لم يطرأ عليها تبديلات عميقة داخل النص القرآني، لكن دلالتها بالضرورة تنتسب إلى عالم المفاهيم والمجرَّدات، مثل مفردات: "الحق"، و"الرحمة"، و"الريب"، وغيرها.

في هذه الطريقة تكون مفردات القرآن **مركزاً لخطاب** يتم اكتشافه عبر علاقات مفاهيمية كثيراً ما تتجاوز المفردات إلى المفاهيم الناشئة عن المركبات والنصوص القرآنية المطوَّلة، وتستثمر فيه أدوات تحليل لغوية مختلفة ومتعددة، غير أن المشكلة في هذا النوع من تحليل الخطاب أننا لا نملك أداةً لتحديد المفردات الكافية لتحليل الخطاب، كما أننا لا نملك أدوات تحدد ما هي المفردات التي يحلل خطابها دون غيرها.

غير أننا نجد أن استثمار مبدأ التراسل الذي اعتمدناه في الطريقة السابقة (طريقة النظام المفاهيمي) يمكن أن يحل لنا المشكلة، إذ ما تفضي إليه علاقات التراسل الدلالي بين المفردات هو ما يجب أن يكون موضوعاً للتحليل، وهو ما سيحصر تلقائياً المفردات الممكنة التحليل. لكن هذا التراسل الدلالي يشترط الاستناد إلى مفردة تكون بمثابة المركز الذي تنطلق وتعود إليه علاقات التراسل، ويقضي ذلك باختيار مفردة

يمكن أن يشكِّل القرآن حولها خطاباً، وهي بالضرورة: أ. مفردة ذات دلالة تجريدية؛ لأنه بدون هذا الشرط لا يمكن وجود خطاب، ب. ومستعملة أكثر من مرة في النص القرآني؛ لأنه بدون هذا الشرط لا يمكن وجود علاقات تراسلية.

ومن الممكن أيضاً أثناء تحليل **الخطاب المفرداتي** البحث في العلاقات التراسلية التمييز بين أنماط العلاقات المباشرة، والعلاقات غير المباشرة، إذ يسهم كل نمط من العلاقات بالكشف عن علاقات دلالية مختلفة عن الآخر.

وتمثيلاً لهذه الطريقة أو المنهج ندرس خطاب "**الكلمة**"[1] في القرآن الكريم، وتستحثنا دراسة سياقات الآيات التي ترد فيها مفردة "الكلمة" على التمييز بين معنى لغوي مستعمل في القرآن ومعنى اصطلاحي، وعلى هذا الأساس يمكن فرز استعمالات المفردة كما يلي:

الاستعمال اللغوي:

﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ (آل عمران: 64)، ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ (إبراهيم: 24)، ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ (إبراهيم: 26)، ﴿كَلِمَةٌ بَاقِيَةً﴾ (الزخرف: 28)، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ (الكهف: 5).

الاستعمال الاصطلاحي:

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: 40)، ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: 39)، ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ (آل عمران: 45)، ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (التوبة: 40)، ﴿كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ (التوبة: 74)، ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ (هود: 119)[2]، ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ (المؤمنون: 100)،

---

[1] هناك محاولة مهمة لدراسة خطاب الكلمة، هي دراسة سمير سليمان، بعنوان: **خطاب الكلمة في القرآن: قراءة في نظام دلالاتها العامة ودلالاتها السُّننية** (طهران: معاونية العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي، د.ط، 1989م). وننوه هنا إلى بعض الدراسات التي تناولت جانباً من خطاب الكلمة، مثل: بحث **عبد الرحمن حللي** المعنون بـ"**الأسماء والكلمات والأشياء**". انظر: حللي، عبد الرحمن، **دعوة الرسل بين الخصوصية والتكامل في القرآن الكريم** (أطروحة دكتوراه، جامعة الزيتونة، 2003)، ص251-261.

[2] وانظر كذلك في: سورة الأنعام: 115، وسورة الأعراف، من الآية 137، وسورة يونس، من الآية 33، سورة غافر، من الآية 6، مع ملاحظة أنه فيما عدا الآية 119 في سورة هود فإن رسم الكلمة مختلف كالتالي: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ولا أدري إن كان لاختلاف الرسم هذا مغزى.

﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ (الزمر: 71)، ﴿كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ (الشورى: 21)، ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (الفتح: 26)، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ (الأنعام: 115، والكهف: 122)، ﴿كَلِمَتُنَا﴾ (الصافات: 171)، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: 34، ويونس: 64)، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ (البقرة: 37، والأعراف: 58)، ﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: 27)، ﴿لِكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ (الكهف: 109)، ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ (التحريم: 12)، ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ (البقرة: 124)، ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: 75)[1]، ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ (الأعراف: 144)، ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: 39)، ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ (آل عمران: 45)، ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ (يونس: 19)[2]، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ﴾ (النساء: 171)، ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ (الأعراف: 158).

من الملاحظ أن مفردة "كلمة" ــ في إطار استخدامها الاصطلاحي ــ تقيم علاقات إسنادية مباشرة مع مفردات: "الله"[3]، "ربّ"، "التقوى"، "العذاب"، "الفصل"، "الذين كفروا"، "الكُفر"، بحيث تثير الآيات ثنائيات متقابلة في المعنى:

"كلمة الله" = "كلمة الرَّب" (ربي/ ربه/ ربها) # "كلمة الدين كفروا"

"كلمة التقوى" # "كلمة الكفر"

"كلمة الفصل" = "كلمة سبقت من ربك" # "كلمة العذاب"

"كلمه الله" بوصفها أمره وتدبيره للخلق[4] التي تعلو كل أمر: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ (التوبة: 40)، يتم بها تدبير الخلق، وعبر هذا المعنى - وباستثناء

---

[1] وانظر: التوبة، من الآية 6، وسورة الفتح، من الآية 15.

[2] وانظر: هود: 110؛ طه: 129؛ فصّلت: 45؛ الشورى: 114.

[3] إن ارتباط مفردة "الكلمة" في صيغتها الاصطلاحية وبشكل مباشر بلفظ الجلالة "الله" يجعلها تنتمي إلى بنية المصطلحات العميقة، أي إلى المصطلحات المفتاحيّة.

[4] هذا هو المعنى الاصطلاحي بعبارة "كلمة الله" القرآنية بوصفها مصطلحاً تركيبياً،، ونحن نذهب إلى أن المركبات التي تستخدم بمعنى كالكلمة الواحدة ينطبق عليها مفهوم المفردة، انظر للباحث: **دلالة المفردة القرآنية**، ص39.

تعبيرات "كلمة التقوى" و"كلمة الكفر" و"كلمة اللذين كفروا" العائدة للآدميين – فإن الإسناد يعود في المحصلة إلى الله الرب، أي تؤول كل التعبيرات إلى المفردة القرآنية "كلمة الله"[1]. وهكذا يتكثّف خطاب الكلمة ويتركز عبر هذه المفردة، لتكون أداة تعيد فتح الخطاب وانتشاره دلالياً على آفاق مفهومية جديدة.

فكلمة الله التي تستثير في الذهن "كلمة الإنسان" لا تعدلها كلمة الإنسان، إن كلمة الإنسان ينبغي أن تبقى تابعة ومستسلمة لها، ينبغي أن تكون كلمة الله نافذة، وهذا قانون لا يتبدل، أليس هذا هو مغزى المشاكلة في مقطع الآية: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: 38، و62، الفتح: 23)، والمقطع: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (يونس: 64)؟

ومن كلمة الله تشتق "كلمات الله"، و"كلام الله" الموحى، ليكون القرآن بوصفه كلام الله وفقاً لخطاب الكلمة إرادة الله وأمره المبرم الذي لا مبدل له: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ (الكهف: 27).

وكما كانت كلمته هي أمره وإرادته في إنزال الوحي هداية للبشر، كذلك كلمته هي في الوقت نفسه أمره وإرادته في الخلق والتكوين كخلق عيسى مثلاً: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (آل عمران: 45)[2]، وبها جاء يحيى مصدقاً: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (آل عمران: 39).

وفي نسق الأمر والإرادة الإلهية الحاسمة يتمدد خطاب الكلمة متماساً مع ما يمكن وصفه بالمنظومة الأمرية الإلهية الحاسمة القاطعة التي لا تقبل التبديل، وهي منظومة تمس نظام الحياة الإنسانية على وجه الخصوص لتحقيق غايات في حركة التاريخ البشري،

---

[1] حتى "كلمة الفصل" هي بمعنى: كلمة الله في الفصل، و"كلمة العذاب" هي بمعنى: كلمة الله في عذاب الكافرين يوم القيامة.

[2] انظر: الطبري، **جامع البيان**، ج3، ص269.

كقانون عقوبة المجرم/الكافر[1] ومكافأة المتّقي/المؤمن[2]، ونصرة الأنبياء[3]...الخ، لنجد أنفسنا في النهاية أمام وظيفية شاملة لكلمة الله هي "إحقاق الحق في الخلق": ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس: 82)، ولأن إحقاق الحق مرتبط بالوجود والخلق من العدم، فكلمات الله إذاً لن تنفد مادام الوجود قائماً وما دام الحق أزلياً: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف: 109)، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: 27).

إن هذه التحديدات الأولية لخطاب الكلمة تكشف عن ارتباطات مباشرة لمفردة "الكلمة" بمفردات قرآنية عديدة، أشرنا إليها قبل قليل، لكن ارتباط هذا الخطاب يبدو قوياً للغاية بمفردة "**الأمر**"، وإن لم يكن هذا الارتباط لفظياً قائماً البتة! وهذا أمر له مغزاه الذي يمكن اكتشافه عبر تحليل خطاب الأمر نفسه. واستكمال استثمار تحليل خطاب الكلمة سيكون بتحليل تلك المفردات من خلال علاقتها بمفردة "الكلمة" القرآنية وخطابها.

غير أن المشكلة التي تعترض الباحث في هذه الطريقة هي ضخامة البحث الذي ستكون نتيجته تحليل الخطاب القرآني برمته، إذ ستقتضي هذه الطريقة تحليل خطاب المفردات القرآنية "كلها" ليصار بعدها إلى التوصل إلى تحليل الخطاب القرآني، وهو أمر عسير للغاية، ويصعب أن يقوم به باحث بمفرده.

ب – خطاب الحقل الدلالي (Semantic Field):

يمكن للحقل الدلالي أن يكون أداة متميزة في تحليل الخطاب عموماً، وقد بدا تطبيقها على القرآن الكريم مثيراً، على النحو الذي قام به المفكر الياباني توشيهيكو

---

[1] انظر مثلاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ (غافر: 6).

[2] انظر مثلاً: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (يونس: 64).

[3] انظر مثلاً: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: 34).

إيزوتسو منطلقاً من مفهوم الحقل الدلالي، الذي يجده أقرب إلى بنية النص القرآني ذاته، فـ"قد يبدو للناظر أن كل ما ينبغي فعله هو فرز جميع الكلمات القرآنية المهمة التي تدل على مفاهيم أساسية مثل: الله، الإسلام، النبي، الإمام، الكافر، ثم فهم دلالاتها في سياقاتها القرآنية. ولكن المسألة ليست بهذه البساطة، فالكلمات أو المفاهيم لا ترد في القرآن منفصلة معزولا بعضها عن بعض، ولكنها ترد معتمدة بعضها على بعض، وتستقي معانيها الحقيقية من نسق العلاقات كلها؛ بعبارة أخرى: إنها تشكل بنفسها مجموعات كبيرة أو صغيرة مرتبطة ببعضها بصور مختلفة، وتؤلف بذلك كلا منظما وشبكة معقدة متداخلة من العلاقات المفهومية"[1].

وهكذا يمكن توزيع مصطلحات القرآن وكلماته في إطار حقول دلالية تقسم المفردات القرآنية إلى مجموعات تنتمي إلى الميدان أو الحقل المفاهيمي نفسه. وعلى سبيل المثال تنتمي مفردات (الإيمان، والله، والتصديق، والإسلام، والشكر، والتكذيب، والعصيان، والكفر) إلى حقل دلالي واحد، ولكن ايزوتسو ينبّه إلى وجود مركز دلالي في كل حقل، يمثل أساساً لتحيل الحقل المفاهيمي، إذ تأخذ الكلمات التالية معناها بالاستناد إليه، وهكذا تصبح كل الكلمات بمنزلة ما يمكن تسميته **هوامش دلالية**.

ثم إن اعتماد الحقل الدلالي بناء على مفهوم المركز يجعل بالإمكان أن توجد المفردات في أكثر من حقل، كما أن مكانة المفردات تختلف من حقل دلالي إلى آخر، فقد تكون تارة مركزاً دلالياً وأخرى قد تكون هامشاً دلالياً، فمفردات: الكفر، والشرك، والعصيان، والتكذيب، والاستكبار، والظلم، والضلال، والفسق تشكل حقلاً دلالياً مركزه مفردة "الكفر"، بينما تشترك هذه المفردة مع حقل دلالي آخر تكون هامشاً دلالياً فيه، مثل الحقل الدلالي المؤلَّف من المفردات الصراط المستقيم، والتيه، والضلال، والغواية، والعوج، والرشاد، والاهتداء، والهدى، والكفر وهو حقل

[1] Izutsu, *God and Man*, p. 12.

دلالي تحتل فيه مفردة "الصراط" البؤرة المركزية[1].

إن اعتماد الحقول الدلالية باعتبارها أساساً نظام علاقات مفهومية بين المفردات القرآنية يمكّن من الحديث عن بنيات دلالية متعددة، وحسب إيزوتسو فإن مفردات القرآن كلها تشكل "نظاماً مفاهيمياً واسعاً، يتألف من مجموعة أنظمة مفاهيمية (بنيات) متداخلة أصغر، التي نسمّيها في علم الدلالة حقولاً دلالية"[2]؛ كل حقل دلالي هو بنية، يتضمن مجموعة بُنى أخرى جزئية، تمثل كل مفردة من مفردات هذا الحقل مع ارتباطاتها الدلالية بمفردات قرآنية أخرى بنية جزئية.

والمشكلة التي يمكن أن تواجهنا في هذه الطريقة هي عدم إمكان حصر الحقول الدلالية، والاقتصار على حقول محددة سيبقى عملاً اجتهادياً خالصاً في مدى شمولها خطاب القرآن الكريم، غير أن ميزة الحقول الدلالية أنها تختصر كثيراً من المراحل التي ستكلّفها طريقة خطاب المفردة.

3. المفردة القرآنية بوصفها مركزاً لتحليل الخطاب الكُلّي

إذا كانت المفردة القرآنية تقوم بدور رئيسٍ في السور القرآنية، فهل بإمكاننا أن نحولها إلى أداة في تحليل الخطاب القرآني؟ إن هذا السؤال لا ينحصر في أسماء السور وحسب، بل إنه يتعداه إلى النقاش الدائر حول محور السورة وعمودها، وإلى ما أسميناه في دراسات سابقة أيضاً بـ"المحور التركيبي".

أ ــ المحور التركيبي للسورة:

سبق أن بينا هناك محوراً لكل أنواع المركبات البسيطة منها والممتدة في الكلام[3]، وهو **الاسم المخَصَّص** (وفق المفهوم الأصولي للتخصيص)، فمن الملاحظ أن كل تركيب يدور على مسمى واحد، مهما تفرَّع عنه من علاقات الإسناد الجديدة لمسميات أخرى، التي ستأتي في المحصلة عبر صلتها المضمرة والمصرحة به (المخَّصص)،

---

[1] Ibid, p. 30-35.

[2] Ibid, p. 20.

[3] انظر للباحث: **دلالة المفردة القرآنية**، ص200-202.

القريبة أو البعيدة، وبما أن **المحور التركيبي هو في المحصِّلة مفردة تمثل مركزاً يتجمّع حوله الخطاب**، فبإمكاننا أن نستثمره في تحليل الخطاب، ولكن المُركَّبات تتفاوت في طولها وحدودها: فهل نختار مركبات الجمل؟ أم الآيات؟ أم القرآن كاملاً؟

في الواقع بإمكاننا الحديث عن محاور تركيب أخرى فرعية، وأخرى أساسية، بحيث تنضوي كل المحاور الفرعية في خدمة المحاور الكلية، والمحاور الكلية هذه تنضوي جميعها تحت خطاب المحور التركيبي الكلي، وهو خطاب النص برمته، أي خطاب القرآن الكريم.

وانطلاقاً من ذلك فإن علينا البحث في خطاب المركبات الصغيرة، والتدرج بها إلى المركبات الكبيرة بحيث نكتشف في المحصلة خطاب السورة عبر المفاهيم التي نسجتها السورة على محورها التركيبي، لنصل عبر دمج الخطابات السُّوريّة (من السورة) للوصول إلى خطاب كلي ونهائي هو خطاب القرآن الكريم من خلال المحور التركيبي الكلي له[1].

والعمل وفق مبدأ المحور التركيبي يسير على نسيج علاقات التخصيص وأنماطها، إذ ليس المحور التركيبي إلا مركزاً لهذا النوع من العلاقات الدلالية. فالتحليل يجري إذاً لإدراك معالم الخطاب من خلال إدراك روابط التخصيص بالاستناد إلى المحور[2].

أخيراً ربما يذكرنا "المحور التركيبي" بدراسات التفسير الموضوعي للسور، التي تداولت مصطلحات، مثل: "مقصود السورة"، و"عمود السورة"، و"محور السورة"، إلا أن هذه المصطلحات – كما سبق وأشرنا[3] – مرتبطة بالموضوع وليس بالمفردة.

ب ــ اسم السورة:

علاقة الاسم (العنوان) بالسورة علاقة ذات مغزى دون شك، بل لقد أوشكت أن تصبح دراسات العنوان بوصفه ظاهرة في النص الأدبي علماً له موضوعه وأدواته الخاصة، وفي كنه هذه العلاقة توجد أسئلة كثيرة تبحث في ما يمكن تسميته **الدلالة الواصلة** بين العنوان ومتنه؛ مثل: هل العنوان مجرد ملخص للمتن؟ أم هو مجرد

---

(1) انظر المحاور التركيبية للسور والمحور التركيبي للقرآن في **دلالة المفردة القرآنية**، ص285-286.

(2) انظر أمثلة محاور التركيب للسور في المصدر نفسه، 285-286.

(3) المصدر نفسه، ص205.

تلميحات له؟ وهل هو مقدمة للمتن؟ أم هو المعنى الأصل الذي يقوم المتن بشرحه؟ ما علاقة العنوان بخاتمة النص؟ وأي دور يلعبه العنوان في تشكيل النص؟ ما هي أنماط العلاقات الدلالية التي تنشأ بين العنوان والمتن؟...الخ.

وأياً تكن الأجوبة عن الأسئلة المذكورة، فإن الخلاصة المقطوع بها أن هناك علاقة دلالية[1] مميزة بين النص وعنوانه، وهناك وظائف دلالية[2] يقوم العنوان بأدائها اعتماداً على نمط علاقته بالمتن، ويبدو لنا من موقع التلقي ـــ وهو أساس النظر في دراستنا ـــ أن وظيفة العنوان بالنسبة للنص القرآني الكريم غير واضحة حتى الآن، ومن المبكر جداً الحسم فيها، فالدراسات ما تزال في أولها[3]، وبالتالي يصعب الاطمئنان إلى نتائجها للاعتماد عليها.

بل إن بعض الباحثين ذهب إلى أن "اعتبار اسم السورة أصلا في الكشف عن مضمونها ومقصودها (...) يقيِّد المفسر ويعوقه عن إدراك الوحدة المعنوية الكلية للسورة، هذا فضلاً عن أن قانون تسمية السور لا صلة له بالنظام الكلي للسورة، وإنما يقوم على مسوغات مختلفة تتصل بالبعد الرمزي للسورة لا بقضايا السورة والبناء المعنوي الذي تطرحه، كما يدل على ذلك استقراء مختلف سور القرآن"[4]، "فسورة المائدة، وإن كان اسمها يدل على أمر نادر جاء فيها وحدها، كما ذكر الزركشي، إلا أن "المائدة" مع ذلك رمز لنقض العهد والميثاق، وهو الأمر الذي كان عليه مدار هذه السورة وعمودها، لكن

---

[1] يحدد بعض الباحثين أنماط العلاقات الدلالية بين العنوان ومتنه في ثلاثة: 1. العلاقة الامتدادية: توليد النص من العنوان. 2. العلاقة الارتدادية: من النص إلى العنوان. 3. العلاقة التجاورية: المجال الجذبوي. (انظر: حسين، خالد حسين، **ظاهرة العنونة: البنية والدلالة في الأنواع الأدبية العربية المعاصرة – تنظير وإنجاز**، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، 2005م، ص35-42.

[2] درس عدد من الباحثين وظائف العنوان، وخلصت الدراسة الآنفة الذكر إلى وجود خمس وظائف، كل منها تتحد تبعاً لموقع العلاقة مع النص (انظر: المصدر نفسه، ص71).

[3] أثار اسم السورة اهتمام الدارسين للقرآن منذ القديم ، مثل برهان الدين البقاعي وبدر الدين الزركشي، وغيرهم، وحديثاً هناك اهتمامات أولية عديدة درست في مجال النقد الأدبي العربي لكنها في معظمها سريعة. (انظر: المصدر نفسه، ص88-97)، كما هناك محاولات في دراسات التفسير الموضوعي، انظر: رشواني، **منهج التفسير الموضوعي**، ص59-61.

[4] رشواني، **منهج التفسير الموضوعي**، ص61.

فهم الرمز – كما يتضح – يقتضي سبق معرفة بعمود السورة ومضمونها الكلي"[1].

وسواء ذهبنا مع برهان الدين البقاعي (ومن تابعه فيما بعد) إلى أن الاسم هو اختصار للمتن، بحيث "أن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه"[2]، فـ"إنَّ اسم كل سورة مترجم عن مقصودها"[3]، أم ذهبنا مع الزركشي إلى أن علاقة العنوان بالمتن علاقة تمركز دلالي رمزي حيث العنوان يكشف عن أهمية المذكور فيه فيما سيورده المتن، وذلك انطلاقاً من عادة العرب في التعبير إذ تراعي العرب "في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خَلق أوصفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمَّى. ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز؛ كتسمية سورة **البقرة** بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها"[4]، أم ذهبنا إلى دراسات العنوان الحديثة في النقد الأدبي وتحليل الخطاب فإن **الخلاصة** التي ننتهي إليها أنه ليس بالإمكان تطبيق قوالب جاهزة، **كل القواعد في دراسة العنوان ووظائفه وعلائقه الدلالية مع المتن هي مجرد احتمالات، وكل عنوان هو حالة بذاته**، وهو أمر يجعل العنوان أكثر "**عتبات النص**"[5] حركيّة وحيوية، ومجالاً للتأويل.

---

[1] المصدر نفسه.

[2] البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآي والسور** (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ت)، ج1، ص18-19.

[3] المصدر نفسه.

[4] الزركشي, **البرهان**، م.س، ج1، ص368.

[5] "عتبات النص" في النقد الأدبي مصطلح يقصد به كل نص محيط بالمتن ما عدا دلالة المتن، ويشمل العنوان، العنوان الصغير، العنوان الفرعي، العناوين المشتركة، الإهداء، تقديم الناشر، تعريف الكتاب المختصر، المدخل، الملحق، التنبيه، تمهيد، الهوامش في أسفل الصفحة أو في نهاية النص، الخطوط، التزيينات والرسوم، الفراغات، وكل الإشارات المكملة التي توفر للنص/المتن وسطاً دلاليًّا مؤثراً في قراءة النص وتأويله. انظر: حسين، **ظاهرة العنونة**، ص29. وقد أطلق على هذه القرائن مسمَّيات أخرى، مثل: الموازيات النصية، أو النصوص الموازية، النص المرافق، الملحق النصي، النص المحاذي، النص المرادف. انظر: المصدر نفسه، ص33،

إن البحث في **الدلالة الواصلة** بين العنوان ومتنه أو بين السورة واسمها أمر يجعل اعتماد أسماء السور باعتبارها مفردات قرآنية[1] فإن معرفة الدلالة الواصلة أو تلمسها هي عملية اكتشاف حقيقية، تنشأ في **مرحلة أولى** عبر معرفة مسبقة بالمفردة الاسم، ثم تحليل واسع للنص يرافقه ملاحظة دائمة للمفردة، لينتهي عبر اكتشاف الخطاب القرآني في السورة من خلال علاقته باسم السورة، وفي **مرحلة ثانية** نجمع خطابات السور سور القرآن الكريم جميعاً، وفي **مرحلة ثالثة** لتعميم عملية التحليل للخطاب القرآني من خلال نسيجه الشامل نضيف البحث في أسماء السور (المفردات) في عموم النص القرآني، وفي **مرحلة رابعة** نبحث في علاقات أسماء السور الواردة في سور أخرى بأسماء هذه السور الأخرى فيما يمكن تسميته بـ"**الدلالة الاسمية العابرة للسور**"، وفي **مرحلة خامسة** يمكن استثمار استراتيجية التحليل من خلال التسمية بتحليل الخطاب الكلي للقرآن على هدي اسمه "القرآن".

فسورة "**الدُّخان**" مثلاً[2] يرد اسمها فقط في ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ (الدخان: 10)، في الآيات المطلعيّة للسورة، حيث تتحدث السورة عن أن نزول القرآن كان أمراً حكيماً فُرق رحمة للعالمين، وتتالى الآيات في مواجهة حالة الشك به، لتدلي بعد ذلك بتهديد بالعذاب يوم القيامة يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (الدخان: 11)، لكن العذاب أجّل قليلاً إلا أنه قادم دون شك فهم عائدون إلى ربهم لا مناص، يومها يذوقون العذاب الأليم: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ

هامش رقم 5. ويُعد الفرنسي جيرار جينيت G. Genette أول من طور أطروحة متكاملة حول مقولة النَّص الموازي أو العتبات النصية في كتابيه "طروس"، و"عتبات"، وذلك خلال العقد الثامن القرن المنصرم. انظر: المصدر نفسه، ص30.

[1] الملاحظ أن أسماء سور القرآن الكريم كلها مؤلفة من مفردة واحدة عدا اسم سورة "**آل عمران**" المركب من كلمتين، واسم سورة "**ق**" المؤلف من حرف واحد، ولكن حتى هذين الاسمين يمكن التعامل معهما بوصفهما مفردات، فالأول واضح أنه اسم علم، والثاني مفردة مؤلفة من حرف تماماً مثل بعض الكلمات العربية المؤلفة من حرف، مثل: قِ.

[2] في هذا المثال نقدم عرضاً تطبيقياً مختصراً جداً لغاية التمثيل والتقريب للأذهان، وإلا فإن تحليل خطاب السورة يحتاج إلى جهد وآليات متعددة لا يتسع المقام لاستعمالها.

﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (الدخان: 16). وتعقب الآيات هذا التهديد بالتذكير بتاريخ الأقوام السابقة، وتحديداً بني إسرائيل، وكيف كانت نهايته الهلاك والعذاب المهين، فما بكى عليهم أحد فقد تكبروا عن آيات الله وكانوا جاحدين: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: 29) ولقد تركوا زورعهم ومكانتهم وترفهم وواجهوا لحظة الحقيقة في إرادة الله تعالى وأمره. إن الكافرين بما أنزل الله ليسوا خيراً من غيرهم، وهم مثل غيرهم سيموتون وسيواجهون يوم حساب عسير ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ (الدخان: 37).

وتُتبع الآيات ذلك بالتذكير بالحقيقة الكبرى أن خلق السموات والأرض لم يكن مجرد عبث ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان: 38-39)، ليعقب بهذه الحقيقة تهديد مالك السموات والأرض بيوم الحساب ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (الدخان: 40-41)، لتفصّل الآيات بأشكال من العذاب المهين للجاحدين بوصف تقشعر له الجلود، في مقابلة مع المتّقين الذين آمنوا به و لم يجحدوه الذين سيكونون مكرمين في مقام أمين وفي جنات وعيون ويرفلون في النعيم والترف، ليختم بأن ذلك هو الفوز العظيم.

ثم تنتهي الآيات في السورة أن القرآن أنزل بلسان النبي لأجل أن يتفهموه وينتبهوا ويرجعوا إلى ما تمليه الحقائق الآنفة الذكر، وتختم السورة الآية ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ (الدخان: 59) في تهديد مخيف يفرض على القارئ بشدة في لحظة تفكير ومراجعة حاسمة تجاه الموقف من التنزيل الكريم، تهديد يعود ليوصل الخطاب باسم السورة "الدخان"، فالارتقاب هنا هو ارتقاب الدخان ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (الدخان: 10)، أي ارتقاب يوم الحساب.

هكذا إذاً يبدو اسم السورة مركزاً لخطابها، **فالدخان هو رمز اليوم الآخر وعلامة يوم الحساب وقرين العذاب**، والسورة إذ تكشف عن علاقة الجُحود

بالكتاب والعذاب باليوم الآخر، فإن **اسمها** (الدخان) **يوحي بموضوع الشكوك والغموض والتردد من جهة، ومن جهة ثانية يوحي بالعذاب**، وبالتالي فإن اسم السورة المختار بدقة متناهية يقدم مدخلاً مثيراً للسورة يشير بذاته بنوع من عدم الوضوح إلى مضمونها، الذي لا يلبث أن ينجلي في الخطاب الكلي لها، لتكون **الدلالة الواصلة** بين العنوان والسورة هي عمق الخطاب الذي "يُمكن" تلخيصه في دعوة وحث للتخلص من عذاب الشك والاشتباه والتردد وسواد الكفر والجحود والتكبر وأهواء النفس وحسم الموقف تجاه التنزيل (القرآن الكريم) بالإيمان به، مستخدماً من أجل ذلك عدداً من الأدوات (بسط الحقائق الكبرى (الله الخالق المالك منزل الكتاب، تساوي الخلق بالنسبة لله في الثواب والعقاب)، تجربة كفران الأقوام السابقة، التعبيرات الجمالية المشحونة بتأثيرات نفسية عميقة...الخ).

فلفظ "الدُّخان" مفردة قرآنية وردت في آيتين فقط، الأولى في سورة الدُّخان، والثانية في سورة فصِّلت، وهي: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: 11)، فالدخان يحيل هنا إلى لحظة بدء الخلق الأولى للكون، حيث كان الكون سديماً ثم ميزه الخالقُ وأعطاه صورته وهيئته التي هو عليها. وهكذا تبدو تسمية الدخان تذكيراً أيضاً بلحظة الخلق الأولى، إذ تمثل نهاية للكون الراهن كما كانت بداية، وبداية لكون جديد كما كانت بداية لعالمنا وكوننا الراهن، هي إذاً تمد خطاب السورة بمزيد من الكشف والتحليل، إذ يقدم لنا هذا المعنى إضافة يمكن استثمارها في التحليل.

إن مفردة "الدخان" التي ترد في سورة فصِّلت ترتبط بمفردة اسم السورة الأخيرة "فصِّلت" بمعنى واضح جداً تكشف السورة أبعاده، فالتفصيل هو تحديد وتمييز وتوضيح، إذ هو هذه النقلة من الحالة السديمية (الدخان) إلى حالة التمايز والوضوح (التفصيل)، التفصيل هو مرحلة تعقب الدخان، ولهذا فالسورة فصِّلت التي تحدَّثت عن **الخلق** باعتباره نقلاً من حالة الدخان السديمية إلى الكون (السموات والأرض): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى

ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (فصلت: 11-12)، تقوم بمشاكلة **تفصيل الكتاب** (القرآن/التنزيل) بتفصيل السموات والأرض، إذ لم يأت ذكر تفصيل الخلق إلا بعد ذكر تفصيل الكتاب: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ (فصلت: 2-1).

وتأكيداً لصواب هذه العلاقة تختم السورة في مقطعها الأخير بموضوع التفصيل – الذي كانت قد بدأته مطلع السورة – بالآية التالية: ﴿﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ (فصلت: 44)، بل إن المثير حقاً أن تختم السورة في آخر آية لها بتأكيد اليوم الآخر ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ (فصلت: 54)، أليست هذه هي موضوعاً رئيساً لمعنى "الدخان"! هنا تبلغ **الدلالة الاسمية العابرة للسور** حداً بالغاً من الإدهاش.

أما الخطوتان الثالثة والخامسة في تحليل الخطاب القرآني، فأمر لا يمكن القيام به دون استكمال تحليل خطاب السور القرآنية كله، وهذا يضطرنا للتوقف عند هذا القدر من التمثيل.

إن ثمة مشكلات قائمة في موضوع أسماء السور، **أولها** تعدد هذه الأسماء[1]، وهو بدوره – **ثانياً** – يثير إشكالاً حول توقيفية بعض الأسماء واجتهادية بعضها الآخر[2].

---

[1] انظر: الزركشي، **البرهان**، ج1، ص268، وقد أورد عدة أمثلة عن تعدد أسماء السور، منها أن سورة الفاتحة مثلاً ذكر لها بعضهم "**بضعة وعشرين اسماً**"، هذا فضلاً عن تعدد أسامي القرآن الكريم نفسه.

[2] لم أجد خلافاً بين العلماء حول توقيفية أسماء السور، وذكر السيوطي أنه: "قد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك. ومما يدل لذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: كان المشركون يقولون: سورة البقرة، وسورة العنكبوت يستهزئون بها؛ فنزل: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ (الحجر: 95)". انظر: جلال الدين أبو بكر عبد الرحمن السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل (صيدا/بيروت: المكتبة العصرية، د.ط، 1987م)، ج1، ص148. وما هو مثار حول تعدد الأسماء وتفسير العلماء لهذه الظاهرة يثير الخلاف في توقيفية عموم الأسماء.

وثالثاً اعتبار أسماء السور جزءاً من القرآن وعدمه![1] فعلى أي اسم من أسماء السورة سنعتمد في تحليل الخطاب؟ وما قيمة الأسماء المختلف فيها في موضوع التحليل؟ وأي نوع من الدلالة الواصلة بين نص لم يسمِّ عنوانه والاسم المطلق عليه؟ وهل يمكن أن تكون أسماء السور من اجتهاد الرسول خصوصاً إذ تنزل وحياً مع القرآن؟

هذه الأسئلة في الواقع تضعف إمكانية الاعتماد على أسماء السورة بوصفها مفردات قرآنية (أو غير قرآنية) لتحليل الخطاب القرآني الكلي، لكن ذلك لا يعني أنها ليست أداة مفيدة في التحليل كما أوضحت الأمثلة.

خاتمة

تتيح المفردة القرآنية إمكانات جديدة لتحليل الخطاب القرآني وفهمه، وعلى الرغم من أن الدراسات في هذا الاتجاه ما زالت جديدة وقليلة، إلا أنها على قلتها تثبت خطورة هذا النوع من التحليل وأهميته في الدراسات القرآنية. وقد حاول هذا البحث التقدم خطوة والنظر في الإمكانات التي يمكن أن تتيحها المفردة القرآنية في تحليل الخطاب، وقدم عدداً من طرق التحليل مصحوبة بنماذج تطبيقية تتيح رؤية هذه الإمكانات في صورة عملية. وبذلك نتجاوز إحدى مشكلات الدراسات القرآنية التي إما أن تغرق في التطبيقات العملية دون سند نظري واضح ومتين، أو تتوقف عند الأفكار النظرية دون الولوج في تطبيقات عملية تمثل امتحاناً للأساس النظري ذاته.

وقد اقترح البحث عدداً من الطرق لتحليل الخطاب، وهي طرق متكاملة، يمكن توظيفها معاً في عملية تحليل الخطاب، فكل منها تكشف أجزاء من الخطاب ما لا يكشفه غيرها، وتضيء فيه مناطق قد لا تتمكن طرق أخرى من إضاءتها. وهذه الطُرق هي بعض ما يمكن أن تتيحه المفردة القرآنية من سبل للتحليل، ولا نرى أن هذه الطرق التي أوردناها

---

[1] قال **ابن تيمية**: "وفي المصاحف من قد كتب ناسخها: **أسماء السور**، والتخميس، والتعشير، والوقف، والابتداء، وكتب في آخر المصحف تصديقه، ودعا، وكتب اسمه، ونحو ذلك، **وليس هذا من القرآن**" انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد السلام الحراني، **كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية**، تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم النجدي (د. م: مكتبة ابن تيمية، د.ت)، ج13، ص105.

هي الطرق الوحيدة، بل هي بعضٌ من إمكانات عديدة يمكن اكتشافها مع تقدم الدراسات في هذا الاتجاه، وليس على الباحثين سوى المضي للوصول إليها.

لقد كان الهدف الأساسي لهذه الدراسة من جهة أولى الكشف عن أحدث الاهتمامات المنهجية في دراسة المفردة القرآنية، ومن جهة أخرى تسليط الضوء على الإمكانات التي تتيحها المفردة القرآنية في تحليل الخطاب، وتقديم اقتراحات جديدة، بما يشكل دفعاً باتجاه مزيد من الاهتمام في هذا المجال والعمل على تطوير البحوث المنهجية في الدراسات القرآنية.

References: المراجع:

'Ayyāshī, Mundhir, *al-Lisāniyyāt wa al-Dalālah* (Aleppo: Markaz al-Inmā' al-Ḥaḍārī, 1995).

'Azzām, Muḥammad, *al-Taḥlīl al-Alsunī li al-Adab* (Damascus: Manshūrāt Wizārat al-Thaqāfah, 1st edition, 1994).

A. Miquel, "Pour Une Relecture du Coran, Autour de la racine NWM", *Studia Islamical,* 1978.

Abdul Rahmān, 'Aishah, *al-Tafsīr al-Bayānī li al-Qur'ān al-Karīm* (Cairo: Dār al-Ma'ārif, 3rd edition, 1968).

Abū Rās, Muḥammad 'Ayish, "Dirāsah Mauḍū'iyyah fī Sūrat al-Zumar", master thesis submitted at the Department of Uṣūl al-Din, Sharia College, Jordan University, 1986.

Al-'Amrī, Aḥmad Jamal, Dirāsāt fī al-Tafsīr al-Mauḍū'ī li al-Qaṣaṣ al-Qur'ānī (Cairo: Maktabat al-Khanjī, 1986).

Al-'Aqīqī, Najīb, *Mawsū'at al-Mustashriqīn* (Cairo: Dār al-Ma'ārif, 4th edition, no date).

Al-'Awwā, Salwā, *al-Wujūh wa al-Naẓā'ir fī al-Qur'ān al-Karīm* (Cairo: Dār al-Shurūq, 1st edition, 1998).

Al-Biqā'ī, Burhān al-Dīn, Abu al-Ḥasan Ibrāhīm bin 'Umar, *Naẓm al-Durar fī Tanāsub al-Āyī wa al-Suwar* (Cairo: Dār al-Kitāb al-Islāmi, no date).

Al-Daghāmīn, Muḥammad Ziyād, Manhajiyyat al-Baḥth fī al-Tafsīr al-Mauḍū'ī li al-Qur'ān al-Karīm (Amman: Dār al-Bashīr, 1st edition, 1995).

Al-Khūlī, Amīn, *Manāhij al-Tajdīd* (Cairo: al-Hai'ah al-Miṣriyyah li al-Kitab, 1995).

Al-Khālidī, Ṣalāḥ 'Abdul Fattāḥ, *al-Tafsīr al-Mauḍū'ī bayna al-Naẓariyyah wa al-Taṭbīq* (Jordan: Dār al-Nafā'is, 1st edition, 1997).

Al-Āmidī, Sayf Al-Dīn Abū al-Ḥasan bin 'Alī, *al-Iḥkām fī Uṣūl al-Aḥkam* (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st edition, 1990).

'Arwī, Muḥammad, "Manāhij al-Taḥlīl wa al-Tafsīr li al-Khiṭāb al-Qur'ānī", post graduate thesis, Faculty of Art and Human Sciences, Rabat, 1994).

Al-Ramādī, Amānī Zakariyyā, "Al-Intāj al-Fikrī ḥawla al-Qur'ān al-Karīm bi al-Lughatayn al-Inkilīziyyah wa al-Faransiyyah fī al-Qarn al-'Ishrīn: Dirāsah Muqāranah", master thesis, University of Alexandria, Faculty of Arts, 1993.

Al-Rūmī, Fahd, *Manhaj al-Madrasah al-'Aqliyyah al-Hadīthah fī al-Tafsīr* (Riyadh: Maktabat al-Rushd, 5th edition, 1422).

Al-Shanūfī, 'Alī, "Lafẓat "Amr" fī al-Qur'ān", *Majallat al-Adab wa al-'Ulūm al-Insāniyyah,* Ḥawliyyat al-Jāmi'ah al-Tūnisiyyah, no. 8, year 1971.

Al-Sharīf, Muḥammad, *Ittijāhāt al-Tajdīd fī Tafsīr al-Qur'ān fī Miṣr* (Cairo: Dār al-Turāth, 1st edition, 1982).

Al-Zarkashī, Badr al-Dīn 'Abd Allāh bin Bahādur, *al-Baḥr al-Muḥīṭ fī Uṣūl al-Fiqh*, ed. 'Abdul Qādir al-'Ānī and 'Umar Sulaymān al-Ashqar (Kuwait: Dār al-Ṣafwah, 2nd edition, 1992).

Al-Zāwī, al-Husain, "Mā al-Mafhūm?: Dilālat al-Mafhūm wa 'Awāmil Tashakkulihī wa Ibdā'ihī", *Majallat al-Fikr Al-'Arabī al-Mu'āṣir,* no. 102, year 1998.

Amīn, Nabīh and Halord W. Glidden, "Taṭawwur Kalimat Ḥanif al-Qur'āniyyah", *Majallat al-Abhāth,* Beirut American University, year 13, vol. 1, March 1960.

Helali, Abdulrahman, "Al-Mafāhīm wa al-Muṣṭalaḥāt al-Qur'āniyyah: Muqāranah Manhajiyyah", *Islāmiyyat al- Ma'rifah*, year 9, no 35, winter 2004.

Helali, Abdulrahman, *Da'wat al-Rusul bayna al-Khuṣūṣiyyah wa al-Takāmul fī al-Qur'ān al-Karīm,* Ph. D dissertation, Zaytouna University, Tunis 2003.

Ḥmīdah, Muṣṭafā, *Niẓām al-Rabṭ wa al-Irtibāṭ fī al-Jumlah al-'Arabiyyah* (Beirut: Maktabat Lubnān Nāshirūn, 1st edition, 1997).

Ibnu Taymiyyah, Aḥmad bin 'Abd al-Salām al-Ḥarrānī, *Kutub wa Rasā'il wa Fatāwa Ibnu Taymiyyah,* ed. Abdul Rahman Qasim al-Najdi (No place: Maktabat Ibnu Taymiyyah, no date).

Izutsu, Toshihiko, *God And Man In The Koran: Semantics of The Koranic Weltanschauung* (Tokyo: The Keio Institute Of Cultural and Linguistic Studies, 1st edition, 1964).

Izutsu, Toshihiko, Structure of the Ethical Terms in the Koran: *A Study in Semantics Studies* (Tokyo: Keio Institute Of Cultural and Linguistic Studies, 1st edition, 1959).

Luxenberg, Christoph, *Die Syro-Aramäische Lesart Des Koran: Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache* (Berlin: Das Arabishe Buch, 2000).

Miftāḥ, Muḥammad, *al-Mafāhīm: Ma'ālim Naḥwa Ta'wīl Waqi'ī* (Beirut/Casablanca: al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, 1st edition, 1999).

Āl Taymiyyah, *al-Muswaddah fī Uṣūl al-Fiqh*, ed. Muḥyiddin 'Abdul Hamīd (Cairo: Dār al-Madani, no date).

Palmer, Frank, *Madkhal ilā 'Ilm al-Dilālah,* translation Khalid Mahmud Jum'ah (Kuwait: Maktabah Dār al-'Urūbah, 1st edition, 1997).

Picht, Herbert and Draskau, Jennifer, *Muqaddimah fī 'Ilm al-Muṣṭalahiyyah*, translation Muahmmad Hilmi Khalil (Kuwait: Majlis al-Nashr al-'Ilmī, 2000).

Rashwānī, Sāmir, "Manhaj al-Tafsīr al-Mawḍū'ī fī al-Qur'ān al-Karīm", master thesis, Cairo University, Faculty of Dār al-'Ulūm, 2003.

Shaḥlān, Aḥmad, "Mafhūm al-Ummiyyah fī al-Qur'ān: Dirāsah Muqāranah Taḥlīliyyah fī al-Lughāt al-Sāmiyyah", *Majallat al-Adab wa al-'Ulūm al-Insāniyyah,* Muhammed al-Khamis University.

Sulaymān, Samīr, *Khiṭāb al-Kalimah fī al-Qur'ān: Qirā'ah fī Niẓām Dilālatihā al-'Āmmah wa Dilālatihā al-Sunaniyyah* (Teheran: Mu'āwaniyyat al-'Alāqāt al-Dauliyyah fī Munaẓẓamat al-I'lām al-Islāmi, 1989).

Torry, Charles C., *Commercial-Theological Terms in the Koran* (Leiden: E. J. Brill, 1892).